روائع الأدب العربي
(الأعمال الإبداعية)

إحسان عبدالقدوس

حائر بين الحلال والحرام



مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤
الهيئة المصرية العامة للكتاب

الطريق سهل نحو السماء

احسان عبدالقدوس

«الأسم الصـــريح لبطلة هذه القصـة كـان مكتوبا فى الطبـعـة الأولى من مجموعة «بائع الحب»... والقصـة نفسـها كـانت قد نشرت بموافقة صاحبتها ... وقد رفعت اسم البطلة من هذه الطبعة!»

اسمها الذى اختارته لنفسها «...».

واسمها المسجل فى شهادة الميلاد «....».

واسمها الذى تنادى به «...».

واسمها الذى تمنحه للأصدقاء «....».

ودعنا من اسم العائلة، فهو اسم كبير عرف خلال الثورة المصرية عام ١٩١٩، حيث أضاع الرجال - رجال العائلة - ثرواتهم فى تأييد حركة الوفد.

وإن كان لا يزال أحد أعمامها حتى اليوم ثريا بعض الثراء، وعم آخر صحفيا وفير الكسب، وأحد أبناء عمومتها وكيلا لإحدى الوزارات.. فهى نفسها نزلت من الفرع الذى فقد الثروة ولم يستطع أن يحتفظ منها بشئ، ولا أن يعوضها بشئ!

إنها ضحية من ضحايا الثورة - هكذا تحب أن تعتقد - وقد نشأت وهى تسمع عن ثراء جدها، وعن العز الذى كان يمرح فيه أبوها وأعمامها، وعن العزب والأطيان وعربيات الدوكار، وقد ضاع كل ذلك فى سبيل الوطن، ولم يبق منه ولا من الوطن شئ .. فما ذنبها هى؟ .. ما ذنبها أن تحرم من ذلك فى حين أنه لا يزال بين بنات الوطن من تمرح فى العز والثراء؟. وكيف تتخلص من هذا الفقر وتعيد مجد الجدود والآباء؟!

وأدخلوها مدرسة يهودية رخيصة، لتتعلم.. وخرجت تجيد الفرنسية!

وتحفظ عن ظهر قلب أشعار مسرحية مجنون ليلى، يحوطها فريق من الصديقات كلهن من بنات إسرائيل..

ولم تستفد شيئا من اللغة الفرنسية، ولا من أشعار مجنون ليلى، ولكنها أفادت الكثير من الصديقات الإسرائيليات.

علموها فن الحياة.

وعلموها كيف يكون لها رأسان. الثانى منهما فى مكان القلب!

وعلموها أن مستقبل المرأة فى ابتسامة ونظرة عين!؟

تعلمت كل ذلك، ثم تلفتت تبحث عن المجد والثراء ..

هل تحاول أن تعثر على زوج غنى؟؟.

لقد حاولت ذلك منذ كانت فى الرابعة عشرة من عمرها تلعب «الإسكيتنج» فى ملعب كان مكانه شارع عبدالعزيز، وفى

ملعب آخر أصبح مكانه الآن سينما ريفولى.. ولكنها كانت محاولة فاشلة، وكان أصلها الطيب يمنعها دائما من الاندفاع فى مغامرات ليست مضمونة النتائج.

إذن لم لا تحاول أن تصبح نجمة سينمائية؟. إنه طريق سهل إلى الثراء، ولا تحتاج فيه لأكثر من الجمال، وهى جميلة، وهكذا أكد لها الناس!

ولكن .. هل هى فنانة؟. هل تستطيع أن تمثل؟

هل كانت كاميليا فنانة؟ وهل كانت هاجر حمدى فنانة؟ وهل كانت مديحة يسرى فنانة؟ .. إلخ!.

إن الفن هو آخر مؤهلات السينما فى مصر، ويكفى الجمال، والجمال فقط!

وصممت على أن تكون نجمة سينمائية، وقد عارضتها العائلة.. عارضتها بشدة .. ولكنها كانت ثائرة، وكانت عنيدة، وكانت قوية. فخضعت العائلة.

وبدأت الطريق، ولكنهابدأته بداية خاطئة، فقد كان كل همها أن تقلد الممثلات اللاتى سبقنها إلى الشاشة، فغيرت اسمها، ولغمطت وجهها بالمساحيق، وبدأت تتكلم من أنفها، كما تفعل تحية كاريوكا، وتضم شفتيها كما تفعل هاجر حمدى. وتتعمد أن تضحك ضحكات مفتعلة ثقيلة، وكانت وهى فتاة فى السابعة عشرة تضع فى قدميها حذاء ذا كعب يزيد ارتفاعه عن عشرة سنتيمترات، يترنح من فوقه جسدها فى شكل ملفت يثير الشفقة..

وبذلك فقدت شخصيتها، وأصبحت لا هى إمرأة ولا هى فتاة، ولا هى بنت ذوات، ولا هى بنت شوارع، كما يظن من لا يعرفها.

فقدت شخصيتها التى كان يمكن أن تؤهلها للفن. شخصيتها الفتاة النضرة المحصنة البريئة. شخصية الفتاة ذات الجمال المتميز النادر الذى يتضوع بعطر الشرق، ويجمع فى خطوطه أساطير الهند، وفطرة جزر هاواى، وسخونة مصر..

* * *

فقدت كل ذلك، وأصبحت لا شئ أو شيئا مائعا لا طعم له.

ولكن. ومتى كان المنتجون والمخرجون يهتمون بالشخصية المتميزة؟

ومتى كا ، الجمال البرئ الساذج يستطيع أن يجد مكانا فى دنياهم؟ إنهم يريدون إمرأة أقرب إلى راقصة صالة منها إلى بنت ناس . هكذا تعودوا أن ينتقوا بطلات أفلامهم!

وبدأت تحيط نفسها بفيلق من الأصدقاء كل منهم له مهمة تستطيع أن ترتفع فوقها.. وكانت قد تعلمت من الفتيات الإسرائيليات كيف تمد لكل منهم خيوط الأمل. وألا تمنح من نفسها إلا الآمال!

وكان يجب أن تضم إلى هؤلاء الأصدقاء من يستطيع أن يدفعها دفعة قوية إلى الأمام، وقد وجدت اثنين:

أولهما : سيدة كان لها ماض فى السينما المصرية، ولاتزال تحاول أن يكون لها مستقبل.

وثانيهما: منتج سينمائى فى الخمسين من عمره، ذهبت إليه فى بيته - وكان يسكن أيامها فى حى السكاكينى - وقدمت إليه نفسها عن طريق بعض الصديقات الإسرائيليات أيضا!!

أما السيدة فقد وجدت فيها زهرة نضرة تستطيع أن تعلقها فى صدرها حتى لا ينفض من حولها بقية المعجبين، ووجدت هى فى هذه السيدة «سلمة» تستطيع أن تتعرف عن طريقها إلى الوسط الفنى الراقى، وتستطيع أن تستعير منها هذا الفراء، أو هذا الثوب، أو هذا المشبك الماسى!!

أما المنتج السينمائى، فقد رأى فيها جمالا، ورأى فيها شبابا، ورأى فيها وجها جديدا يستطيع أن يستغله دون أن يكلفه غاليا.. ورضيت هى أن ينتج لها فيلما لا تتناول عليه أجرا إلا ثمن الثياب التى ستبدو بها فى مشاهده.

وقد نجح الفيلم، ولم تنجح هى، لأنها تصنعت فى كل موقف من مواقفه، ولم تجد المخرج الذى يعيب هذا التصنع، بل ربما شجعها المخرج على تصنعها فإن معظم مخرجينا يعتقدون أن الفن تصنع، وينسون المبدأ الرئيسى الذى يعبر عنه الإنجليز «الفن هو ألا تتصنع الفن».

* * *

وأصبح الطريق بعد ذلك سهلا ممهدا لا يحتاج إلا إلى الصبر الجميل، لكن كان ينقصها أن تضم إلى أصدقائها بعض الصحفيين ليكتبوا اسمها بأقلامهم فى سماء الفن.. وجاءتنى ضمن من ذهبت إليهم لتحدثنى عن مستقبلها الفنى.

واستمعت إلى حديثها وأنا ألمح فى أعماقها جوهر الفن الأصيل، الجوهر الذى تخفيه أتربة أساليب زعماء السينما المصرية.

ثم قلت:

- هل تريدين رأيى الصريح .. إنك صورة رسمها فنان مبتدئ غبى لموديل جميل. امسحى هذه الأصباغ عن وجهك ، وأبدلى هذا الثوب المزوق بثوب بسيط، واكسرى كعب حذائك الطويل. وكونى ضنينة بابتسامتك ونظرات عينيك، وتكلمى دون افتعال، ودعى النفس الحلوة تبدو على وجهك، والأصل الطيب يطل من عينيك، ولا تجعلى من رأسك ورشة لمشاريع، بل اعتمدى على القدر واكتفى بالمبدأ الصالح، وامنحى قلبك حق الحياة، ليحيا الجمال الهادئ العبقرى على خفقاته..

وقلت لها:

- إنك ستكونين نجمة نجوم السينما، ولكنك لن تكونى فنانة، إلا إذا درست الفن وتعبت فى دراسته، اقرئى ألف كتاب، وشاهدى ألف مسرحية، وتتلمذى على يد فنان كبير يبدأ بك «السلم» من أوله، حتى يذيب فيك روح الإنسان، ويخلق منك روح الفنان!!

قالت:

- يظهر يا أستاذ أنك خيالى قوى .. أو ريفوار بأه!!

وابتسمت، فإن رجال السياسة أيضا يتهموننى بأننى خيالى!

الله محبة

ليس لى فضل فى هذه القصة إلا فضل كتابتها .. فقد سمعتها من فتاة قبطية أحبت مسلما، وانتهى حبها إلى عذاب. فدارت تتعذب بجمع قصص المعذبات مثلها.. القبطيات اللاتى أحببن مسلمين .. والمسلمات اللاتى أحببن أقباطا ..

قصة كتبتها لأنها مشكلة تعيش فى أكثر من بيت، ويروح ضحيتها أكثر من قلب ..

مشكلة لن يحلها تجاهلها ..

« إحسان »

كان كل شئ بينهما يبدو طبيعيا، كما يبدو بين كل فتى وفتاة.. ليس فيه شذوذ، ولا غرابة، ولا ينذر بمأساة..

كان شقيقاً لإحدى صديقاتها، وكانت تراه دائما كلما رأت شقيقته، ثم أصبحت ترى شقيقته كلما رأته، ثم أصبحت تراه دون أن ترى شقيقته!..

وإذا بها فى شوق دائم إليه .. إلى وجهه الأسمر فى لون البن المحروق .. وعينيه السوداوين الذكيتين، وقامته المديدة كأنه فرعون صغير، ولم يكن يميزه عن فرعون إلا أدبه الكثير، وصوته الخفيض، وكلماته التى ينطقها ببطء وكأنه ينتزعها من بئر عميقة، وينطقها بلهجة صعيدية يحرص عليها رغم أنه لا يزور الصعيد إلا فى كل عام مرة أو مرتين ليجمع محصول أرضه ..

وإذا بها تعيش دائما معه، فى ذكرى لفتاته ولمساته وابتساماته النادرة. وإذا بها تضحك كلما تذكرت لهجته الصعيدية، ثم تقلده فيها حتى كادت هى الأخرى تنطق بها ..

وعندما التقت شفتاها بشفتيه لأول مرة، عرفت أنها تحبه .. وإن لم تعرف إلى أى حد يمكن أن تحبه !..

ولم تكن فى شك من أنه يحبها .. إنها تقرأ الحب فى عينيه، وتشربه من شفتيه وتسمعه مع أنفاسه ..

إنها تحبه .. ولكن إلى أين؟..

إلى أين، هذا الحب؟!!..

وحاولت أن تهرب من تساؤلها .. حاولت أن تهرب من مستقبلها.. حاولت أن تهرب من الحقيقة التى تجاهلتها منذ أن ... ومنذ أن أحبته ..

إنه قبطى ..

(الوسادة الخالية)

وهى مسلمة ..

ومضت بها الأيام فى عذاب، وذبلت عيناها تحت ثقل دموعها، وذوى عودها حتى كأنه جف، وسقطت سحابة فوق وجهها فبدت كأنها تعيش دائما فى سحاب.. وكانت تراه فترى فى عينيه، وترى عوده فى سباق نحو الجفاف، وتراه يعيش معها فى سحاب .. كانت تعلم أنه يتعذب مثل عذابها، وأكثر ..

رغم ذلك لم يواجها الحقيقة ..

لم يقل لها إلى أين ..

ولم تسأله إلى أين ..

ولكنها لم تستطع أن تهرب طويلا من تساؤلها، ولا من مستقبلها .. كانت كلما ضم شفتيه إلى شفتيها سمعت دقا كأنه دق دفوف الزفاف، وكلما أراحت رأسها على صدره أحست أنها فى «الكوشة»، وكلما رأته آتيا نحوها من بعيد خيل إليها أن الملائكة ينشدون من حولها:

«مبروك عليكى عريسك الخفه» !!

وكـان يجب أن تبـحث عن حل ..عـــن نهــاية يــســتـقــر عـــندها حبها.

وبدأ تفكيرها يتخذ خطوطا عـملية .. إنه يستطيع أن يشهر إسلامه .. ويستطيع بعد ذلك أن يتزوجها ..

إنها مجرد شكليات .. أن يذهب إلى المحكمة الشرعية ويقول أمام القاض: « أشهد أن لا إله إلا الله، وأشـهد أن محـمـد عبده ورسوله».. ثم يصحبها بعد ذلك إلى المأذون!..

واستراحت إلى هذا التفكير، وقررت أن تدفعه إليه..

وكأنهما كانا على موعد.. فلم يكد يلتقى بها ويسحب شفتيه من فوق شفتيها، حتى قال بصوته الخفيض وكأنه ينزع كلماته من بئر عميقة:

ـ لقد فكرت طويلا .. يجب أن ننتهى إلى حل..

قالت وكأنها تزغرد:

ـ هل تشهر إسلامك؟!..

وصمت طويلا وكأن شفتيه الرقيقتين قد اختفتا من وجهه.

وعادت تقول وقد انهارت فرحتها:

ـ إنك لا تريد .. لا تريد أن تتزوجنى..

وتحركت شفتاه ببطء:

ـ لى سؤال واحد..

ماذا ؟..

ـ هل لو طلبت منك أن تخرجى عن دينك.. تخرجين؟.

وأجابت فورا، وكأنها لم تفكر، ولا تريد أن تفكر:

ـ نعم..

ثم سكتت ولم تعلق بشئ، وكأنـها أحست بخطورة مـا وافقت عليه.. أحست بأن شيئـا كبيرا مجهولا قد تخلى عنها، وتركها معلقة بين السماء والأرض، وسلط عليها هواء رطبا يملأ صدرها ويعصف فى عروقها..

وابتسم ابتسامة حانية وقال وهو يحتضنها بابتسامته، ويمسح بيده فوق رأسها كأنها يد قسيس طيب تباركها:

ـ إلى هذا الحد؟!!..

قالت وهى لا تنظر إليه، وليس فى صوتها سوى حشرجة:

ـ لقد قلت إننا يجب أن ننتهى إلى حل .. أى حل!!..

قال وقد أحس ما بها :

ـ إن كل منا يريد أن يضحى للآخر بأعز ما يملك.. ولكنى لا أريد أن تضـحـى، أو علـى الأقل لا أريدك أن تشـعـرى بأنك ضحيت وإلا لما غفرت لى أبدا هذه التضحية.. كما أنى لا أريد أن أضحى بدينى لمجرد أنه مفروض فى أن أضحى به.. لنترك الله يختار بيننا .. فهو صاحب دينك ودينى..

ـ وكيف يختار الله؟!!..

ـ لنجرب الحظ .. فهو أبسط مظاهر حكم القدر..

وأخرج من جيبه قطعة نقود فضية، وقدمها إليها قائلا:

ـ اختارى لك وجها..

وابتسمت، أو حاولت أن تبتسم، واختارت أحد وجهى قطعة النقود،واختار هو الوجه الآخر، ثم وضع النقود فى يدها قائلا:

ـ اقذفى بها فى الهواء.. والوجه الذى يسقط إلى أعلى يغير صاحبه دينه!!..وحاولت مرة أخرى أن تبتسم، ولكنها لم تستطع .. ووجمت، وأحسست أنها مقدمة على السير فوق الصراط المستقيم، وعندما قذفت بقطعة النقود فى الهواء أحست أنها تقذف بقلبها..

وانحنت تنظر إلى الأرض وقد جحظت عيناها، وكتمت أنفاسها.. ثم شهقت شهقة خافتة، ورفعت رأسها وقد تصلب وجهها وتاهت نظراتها..

أصبح عليها أن تغير دينها وتعتنق المسيحية..

وارتبك هو بجانبها، ولم يدر ماذا يقول، ثم افتعل ضحكة جافة.. قائلا:

ـ هل صدقت ؟!!.. لقد كنت أهذر.. إنها نكتة أردت أن أسليك بها.. لا تأخذيها على محمل الجد.. إن الإنسان لا يقامر بدينه، وهذا نوع من القمار.

قالت وهى لا تزال ساهمة:

ـ إنه القدر.. والحب قدر!!..

ـ لا .. لن أسمح لك..

ـ لا تتعب نفسك.. لقد قررت..

ثم التفتت إليه، وركزت عينها فى عينيه:

ـ قل لى .. هل كنت تشهر أسلامك لو رفضت أنا أن أعتنق المسيحية؟!!..ولم يجب، ولكنها لمحت دموعه فى عينيه.. دموعا تشهد على حبه، وتقسم بجميع الأديان أنه لها .. فانكفأت على صدره تبكى..

وجمعتهما الدموع فى دين واحد..

ولم تنم ليلتها..

ولم تحس بالإسلام وبأنها مسلمة.. قدر ما أحست هذه الليلة.. بل خيل إليها أن كل حياتها وكل ذكرياتها كانت كلها الدين.. أشياء صغيرة مرت بها ولم تكن تذكرها أصبحت تذكرها وكأنها قطعة من حياتها .. الحاجة أم إبراهيم مربية والدها التى تأتى لزيارتهم كل أسبوع لتبخر البيت ثم تطوف فوق رأسها بالمبخرة وهى تقرأ الأوردة وتتلو الأدعية.. وأم عبده الماشطة، التى كانت تدخل معها الحمام فى صغرها وتدلك جسدها البكر وهى تسكب فوقه الماء الساخن، وتتمتم « اللهم صل عليه وسلم. قل أعوذ برب الفلق من شر حاسد إذا حسد».. وزيارتها «للقرافة» لتقرأ الفاتحة على قبر والدها.. ورمضان،

والتفاف العائلةفى انتظار مدفع الإفطار.. والعيد وفرحته.. وصوت المقرئ الذى ينبعث من الراديو ويتلو القرآن.. وقسمها بالنبى فى كل مناسبة. أى نبى تقصد عندما تقسم اليوم؟!

إنها مسلمة.. ولم تكن تدرى أن الأسلام يعيش فى حياتها إلى هذا الحد.. إنها لا تصلى ولا تصوم، ولكن هناك من الإسلام شئ أكثر من الصلاة والصوم، شئ يختلط بدمها، ويتردد مع أنفاسها ولم تكن تحس به لأن الإنسان لا يحس بدمه ولا يعد أنفاسه..

وكادت تجن..

يا رب.. لماذا لم توحد الأديان..

يا رب.. وإذا كانت هذه إرادتك فما ذنبى أنا!!

وقامت فى الصباح مقرحة الجفنين، كأنها أفاقت من إغماء..

وذهبت للقائه، وصحبها إلى قسيس ليسألاه عن الإجراءات المتبعة..وكانت تسير صامتة متصلبة العود، شاردة النظرات كأنها آتية من عالم آخر.. وكانت تسمع صوته كأنه آت من بعيد.. من بعيد جدا.. ولا تجيب عليه إلا بهزات رأسها وكأن الناس فى هذا العالم الذى أتت منه ليس لهم ألسنة.. ونظرت إلى القسيس دون أن تراه.. وخيل إليها أنها أمام عملاق ضخم مجلل بالسواد.. وأن رأسه الكبير.. كبير جدا.. ولحيته سوداء تتدلى حتى ركبتيه.. ولم تسمع شيئا مما كان يقوله الرجلان وهى بينهما.. إنما شردت عيناها تطوفان بالغرفة. ثم سقطتا فوق لوحة معلقة بالجدار..

لمحت شيئا مكتوبا على هذه اللوحة.. حروفا لا تستطيع أن تلتقطها بعينيها الشاردتين، إنما هى تهتز وتتموج كأنها حروف مكتوبة فوق الماء..

وأجهدت عينيها، ودققت النظر، وحصرت ذهنها، إلى أن اتضحت الحروف أمامها..

وقرأت: الله محبة..

وابتسمت ابتسامة باهتة.. ثم ابتسم وجهها كله.. وارتخت أعصابها المتصلبة، وارتاحت عيناها الشاردتان.

وأحست أن قلبها يهلل ويضحك ويملأ الدنيا كلها ضحكا.

إن الله محبة..

الله الحب..

إذن فهى مع الله؛ لأنها تحب؛ ولأنها هنا من أجل الحب.

والتفتت إلى القسيس لتراه لأول مرة.. وخيل إليها أنه جميل جميل جدا.. أشبه بكيوبيد إله الحب الذى يصورونه فى الكتب..

واقترب منها القسيس وربت على كتفها بيد حنون وهو يقول فى صوت كأنه نغم مزمار.. مزمار داود: «بارك الله لك يا ابنتى»!

وطأطأت رأسها وقد استبدت بها السعادة حتى خجلت منها.. ثم انصرفت مع فتاها..

وسألته وهما فى الطريق:

- إلى أين؟

- إلى المحكمة الشرعية..

- لماذا؟..

- ألم تسمعى ما قاله القسيس!!

- لا..

- إنك لا تستطيعين أن تغيرى دينك لأنك لم تبلغى سن الرشد بعد..

- وما العمل؟..

- سأعتنق الإسلام..

وتعلقت بعنقه وأخذت تقبله فى جميع أنحاء وجهه..

وقال وهو يقود سيارته:

- هذه المرة.. إنه القدر!..

* * *

وتم إشهار إسلامه..

ولم يكن الأمر لديه يتعدى مجرد شكليات يفرضها عليه المجتمع، ومجرد ورقة يوقعها إرضاء للحكومة.. إن ما بينه وبين الله فى قلبه وفى سريرته لا شأن للمجتمع ولا للحكومة ولا للمشايخ ولا للقسس به.. والله ليس فى حاجة إلى هذه الإجراءات ليعرف إيمانه، وهذه الإجراءات أيضا لن تبدل شيئا مما بينه وبين الله..

أشهر إسلامه وهو لا يشعر بشئ إلا شعورا أشبه بالتحدى.. تحدى قومه وتحدى قوم فتاته.. وربما ارتجفت شفتاه وهو يتلو الشهادتين، وربما ارتعشت يده وهو يوقع الأوراق، ولكنه كذب رجفته وأنكر رعشته وأقنع نفسه بأنه يؤدى واجبا يفرضه عليه النبل، والشهامة، والحب .. وكلها صفات من صفات الله ..

وكان عليه بعد ذلك أن يذهب إلى شقيق الفتاة ليخطبها منه إلى نفسه .. وكانت هذه الخطوة أصعب عليه من تغير دينه .. بل إنه لم يحس أنه قد خرج عن دينه إلا وهو جالس إلى شقيق الفتاة كالتلميذ المرتبك أمام لجنة الإمتحان .. يحاول أن يتذكر كل ما اختزن فى رأسه فلا يذكر منه شيئا ..

وقال الأخ الكبير فى هدوء:

- إنى لا أستطيع أن أعترض، فأنت تملك جميع صفات الزوج الكامل، ولكن ..

وسكت الأخ قليلا، وتعلقت أنفاس الفتى بشفتيه ..

واستطرد الأخ قائلا:

- هل تجيبنى بصراحة لو سألتك؟!

سأحاول ..

- هل أشهرت إسلامك إيمانا منك بالإسلام، أم لمجرد الزواج من شقيقتى؟ ..

وسكت الفتى طويلا.. واحتقن وجهه .. وأخذ يضغط بيد على الأخرى .. ثم قال وهو يختار كلماته بدقة حتى لا يخطئ

وكأنه يختار مواضع قدمه فى طريق ملئ بالأشواك:

- الواقع إنى لم أكن متدينا أبداً .. كنت قبطيا بالوراثة وكنت أشترك فى القليل من مراسم الدين بحكم العادة وبحكم وجودى بين أفراد عائلتى .. ولكنى لم احاول أبداً أن أعي الديانة وعياً كاملاً أو أومن بالدين إيماناً منفصلاً... إنما كنت دائما أؤمن بالله إيمانا مطلقا مجردا، وأخافه، وأتقى غضبه.. وكنت أؤمن بالصدق والأمانة وبقية المثل العليا دون أن أربط هذا الإيمان بالدين .. فإذا كان هذا حالى وأنا قبطى، فلا تنتظر منى أن أقول لك إنى أؤمن بالإسلام كالدين مفصل، بل إنى أعترف لك أنى لا أعلم من الاسلام إلا أنه دين سماوى ..

- إذا فأنت لا تؤمن بالإسلام .. ولا بالمسيحية !!

- إننى أؤمن بالله .. وكل الأديان لله!!

- إن الإيمان يحتاج إلى قواعد يرسو عليها، إلى خطوط تحدده حتى لا يكون إيمانا مائعا يخضع لهوى النفس وأطماع البشر.. والله عندما فرض علينا الإيمان به فرض علينا إيضا صور هذا الإيمان وتفاصيله، وربط نواصيه ربطا محكما حتى لا يترك فيه ثغرة يدخل منها المجادلون وبصحبتهم الشياطين ليضللوا العباد باسم الله سبحانه وتعالى ..

- إنى أحسدك على إيمانك، وهو نوع من الإيمان يحتاج إلى قوة روحية لا أملكها .. ولكنى لا أريد أن أتزوج شقيقتك فى الآخرة، إنما أريد ن أتزوجها فى الدنيا .. والدنيا لا تتطلب منى كشرط لزواجها إلا أن أكون قادرا على إسعادها، فاكتف بهذا وأنت تحاسبنى، ودع الله يحاسبنى على الباقى.

- إن الإيمان شرط لحياة الدنيا وحياة الآخرة .. والله يحاسبك فى الدنيا وفى الآخرة.. وأنا أحاسبك باسم الله، وبكتاب المسلمين، وكتاب الأقباط..

- إنى أحبها .. والله مع الحب !

- إن الحب إيمان .. والإيمان يبدأ بالله وبالدين!!

- إن الله جمع بين قلبينا، وأنت تريد أن تفرق بيننا ..

- إنك تتحدى الله!..

- أستغفر الله .. ولو كان الزواج هو مجرد الجمع بينكما، لتركتكما لله يصدرفيكما حكمه .. ولكن الزواج هو الأولاد وهو المجتمع.. وأنا لا أستطيع أن أغمض عينى عن جريمة ترتكب فى حق المجتمع .. تصور أولادك عندما ينشئون وهم لا يدرون إن كانوا مسلمين أو أقباطا .. لا يعرفون نبيا يقدسونه، ولا يعرفون قديسيين وأولياء يتشبهون بسيرتهم، ولا يسمعون هذه القصص الدينية التى تبدو ساذجة، ولكنها تترك فى نفوس الأطفال خطوطا عميقة تنمو معهم وتصون مبادئهم، ولا يمارسون هذه التقاليد والطقوس الدينية التى تبدو فطرية تافهة ولكنها تحيط القلوب الصغيرة بأغلفة من السمو الروحانى وتقطر فيها الإيمان قطرة فقطرة حتى تصبح قلوبا كبيرة محصنة أمام الشر وأمام الخطيئة ..

وسكت الأخ الكبير كأنه يقيس وقع كلامه على الفتى، بينما الفتى منكس الرأس يدق الأرض بقدمه دقات خفيفة متوالية كأنه لا يريد أن يسمع ولا يريد مزيدا من الكلام ..

واستطرد الأخ قائلا:

ـ انظر إلى نفسك ، إنك فتى صالح .. أتدرى سر صلاحك وقوة خلقك إنهمـا فى طفولتك وفى نشأتك .. لقد نشأت وأنت تعرف دينك وتعرف نبيك، وتربيت مخافة الله معك، وشربت الصدق والإخلاص وبقية المثل العليا مع لبن أمك، حتى لو أنك اليوم تنكر الدين ، وتنكر تفاصيله، وتنكر طقوسه .. إنى أريد أولاد أختى أن يكونوا مثلك ومثلى، لا أريدهم حيارى بين أم تؤمن فى قرارة نفسها بالإسلام، وأب يؤمن فى قرارة نفسه بالمسيحية، وكل منهما يخاف أن يفصح عما فى قرارة نفسه خوفا من إغضاب الآخر، وكل منهما يخاف أن يروى لأولاده قصص دينه، ويمارس أمامهم تقاليده وطقوسه .. ثم المجتمع .. و..

وقاطعة الفتى وهو يصفع ركبته بكفه فى حركة عصبية:

ـ يبدو أننا لن نتفق .. وقد كدت أيأس!

ـ خير لك أن تيأس ..

ـ إذا، فلن توافق على الزواج..

ـ وسأمنعه بكل ما فى من قوة ..

ـ وتتركنا للعذاب !!

ـ إنى أوفر على أختى عذابا كبيرا ..

ـ وتظن أن الله يرضى عنك؟!

ـ إنى أتقى غضب الله .!..

وانتفض الفتى واقفا، ومد يدا باردة إلى الرجل، ثم اتجه نحو الباب .. وفى البهو الخارجى التقى بالفتاة واقفة وبين عينيها سؤال متلهف، قرأت جوابه فى وجهه المربد وعينيه الغاضبتين وشفتيه المزمومتين حتى كادتا تختفيان من وجهه .. فشهقت وضعت كفها فوق شفتيها حتى تكتم شهقتها وارتفعت فى عينيها نظرة فزع وألم كأنها رأت قلبها يذبح أمامها .. ووقف الفتى قبالتها برهة، ينظر إليها ولا يتكلم ولا يمدلها يدا.. ثم نقل عينيه إلى أخيها.. ثم خرج !!..

وفى الليلة نفسها صحب الأخ شقيقته إلى عزبته، ومعها دموعها.. وهناك مرت بها الأيام وهى فى كل يوم تفقد شيئا من نفسها حتى خيل للناس أنها فقدت عقلها ...

جفت حتى أصبحت كعود الخطب لا يرويه ابتسام ولا ترويه دموع.. وشرد كل مافيها حتى لم يعد فيها شىء .. ولم تعد تتكلم، ولم تعد تسمع شيئا مما يقوله لها أخوها، ولم تعد تحس بجوع أو بشبع، ولا بظمأ أو ارتواء، ولم تعد تقف أمام مرآتها، أو تضع الطلاء على وجهها، أو تمشط شعرها، أو تبدل ثوبها .. أصبحت كيانا مذهولا يطوف كالخيال بين أربعة جدران ..

ولم يعد فيها إلا شىء واحد علامة الحياة .. عيناها .. كان فيهما دائما بريق خاطف وكانتا دائما مفتوحتين، وكانتا دائما تبحثان عن شىء .. ربما شىء فى عقلها أو شىء فى قلبها، أو شىء وراء الحياة ..

ثم بدأت تميل إلى امرأة معينة من نساء العزبة.. تدعوها دائما إلى صحبتها ولا تتناول شيئا إلا من يدها، ولا تتكلم إلا

معها .. وأحبتها المرأة، وحنت عليها ودللتها، وأخلصت فى خدمتها.

وجلست يوما تكتب خطابا قصيراً .. بضعة كلمات مرتعشة:

«حبيبى..» .

« لم أعد أحتمل .. إنى أحس بالجنون يزحف فوق صدرى .. سأذهب إلى الله .. ربى وربك.. ربما التقينا هناك!» .

وأعطت الخطاب إلى المرأة لتلقيه فى صندوق البريد فى خفية من أخيها .. ثم أرسلتها بعد يومين لتقف عند باب العزبة فى انتظار موزع البريد، ربما يأتى إليها برد ..

وجاءها الرد.. قصيرا .. بضعة كلمات مرتعشة:

«حبيبتى..»

« لا تذهبى وحدك .. انتظرى، سأذهب معك .. أخبرينى كيف تذهبين ومتى تذهبين .. التاريخ والساعة بالضبط، حتى نصعد سويا فلا يضل أحدنا طريقه إلى الآخر .. إن الله موافق على زواجنا والملائكة يعدون حفل الزفاف !».

* * *

وفى يوم معين فى ساعة معينة، ارتفعت صرختان من ألم فى وقت واحد .. إحداهما فى عزبة شكرى بكفر صقر والثانية فى شارع شيكولانى بحى شبرا .. وخرجت سيارة من عزبة شكرى تطوى الأرض نحو المركز لإستدعاء طبيب، وكان الطريق طويلا والطبيب متكاسلا، وعندما عادت به السيارة إلى العزبة ، كانت الصرخة قد سكتت .. إلى الإبد!!

واستدعى الطبيب القريب فى حى شبرا فجاء سريعا.. استطاع أن يطردالموت من حول الفتى وأن يسترد السم من أمعائه قبل أن يفتك به ..

كانا قد اتفقا على كل شيء .. اليوم، والساعة، ونوع السم .. ولم يبق أمامها إلا الزفاف فى السماء..

ولكن الله أردها وحدها.. وتركه فى الدنيا وحيدا مع عذابه فى انتظار زفافه إليها.. إنه يعيش منذ عامين يستجمع شجاعته ليحاول اللحاق بها مرة أ خرى .. والطريق صعب، وقد جربه مرة، وذاق أوله ، فلم يستطيع أن يجربه مرة أخرى إنه يعيش هيكلا متداعيا من ذكريات حبه.. هيكلا يضم من الروح نسمات خافتة، ويضم من الموت فراغا كبيرا هائلا .

يعيش وهو ينثر العذاب من حوله .. فقد عرفت الفتيات القبطيات قصته، وحاولت كل منهن أن تردله الحياة وتبعد عنه الموت، فلم تنل منه الا أن تعذبت معه وبه ..

ابعدوا عنه .. إنه معذب ينثر العذاب!..

ولكن .. أين الأخ الكبير الجليل؟..

إنه يصلى !! ..

القــرآن

كانت القرية الصغيرة قد تعودت فى كل شهر من شهور رمضان، أن تستضيف مقرئاً من القاهرة، يحيى فيها ليالى رمضان بتلاوة القرآن ويتباهى به أهل القرية على أهالى القرى المجاورة..

وكان سيد القرية هو الذى يدفع أجر المقرئ، ونفقات إقامته.. ولكن السيد أضرب منذ عامين عن دعوة المقرئ احتجاجا على انتزاع ستين فدانا من أرضه، استولى عليها الإصلاح الزراعى.

وفى العام الماضى اجتمع أهل القرية فى شبه مؤتمر صغير لبحث موضوع دعوة مقرئ من القاهرة .. وقال حمدان ساخطا:

- دى بلدنا ما كانش لها قيمة إلا فى رمضان .. دى البلاد كلها كانت بتتلم حوالينا علشان يسمعوا الشيخ عبد الباسط .. النهاردى وشنا فين السنة دى .. ده رمضان ما يبقالوش حس!

وقال المعلم قورة الحانوتى:

- كفاية عليكم السنة دى الراديو..

وصرخ عوضين الخولى:

ـ راديو .. راديو إيه يا عم .. ده حتى حرام !

وقال فرج الله :

ـ ما نروح نكلم البيه، يمكن يغير رأيه ويجيب لنا الشيخ عبد الباسط!

وقال فتوح:

ـ ما هو إذا كان الإصلاح هو اللى خد الأرض يبقى حق الإصلاح برضه اللى يجيب الفقى!

ورد المعلم قورة:

ـ هو يعنى الإصلاح خد الأرض حطها فى جيبه .. ما هو بيوزعها على الفلاحين .. شوف لك فكرة تانية يا فتوح!

وقال الشيخ تمام إمام المسجد:

ـ ما هو مافيش إلا طريقة واحدة .. كل واحد فينا يحط قرشين، ونبعت نجيب الشيخ عبد الباسط .. وما حك جلدك مثل ظفرك!

وقال فرج الله:

ـ وإيه عرفنا بياخد كام؟!

ورد المعلم قورة:

ـ تلاتين جنيه .. غير الحلويات .. وغير المضيفة .. وغير الشاى .. وغير النصبة اللى بتتنصب كل ليلة للسميعه!

وقال عوضين الخولى:

ـ يعنى توصلها لخمسين جنيه .. على منهم اثنين،وكليتين دره!

وقال فرج الله:

ـ أنا كنت محوش من مهر ستهم تلاته جنيه .. أدفعهم وربنا يعوضنا.. أحسن ما الناس تاكل وشنا ، ويقولوا كفر ممونة مضلم فى رمضان!

وبدأ أهل القرية يدفع كل منهم ما يستطيعه، حتى جمعوا من بينهم خمسين جنيها..

وجاء الشيخ عبد الباسط وأحيى ليالى رمضان .. وتباهى كفر ممونة، على بقية القرى والكفور .. وجاء إليه الناس يسعون كل مساء لسماع تلاوة المقرئ القاهرى .. وأهل الكفر يرحبون بهم فى اعتداد .. اعتداد لم يشعروا به فى الأعوام السابقة .. إنهم ليسوا رجال سيد القرية، ولكنهم أسياد القرية فعلا .. إنهم هم الذين دفعوا من جيوبهم أجر المقرئ ..

وكان هذا فى العام الماضى ..

واجتمع المؤتمر الصغير هذا العام ليتخذ قرارا فى موضوع دعوة الشيخ عبد الباسط .. وقال فرج الله:

ـ أنا السنة دى على الله .. القرشين اللى دفعتهم السنة اللى فاتت معرفتش أجيبهم تانى!

وقال عوضين :

ـ والله يا جماعة لو جيتو للحق، أنا ماعنديش حاجة من أصله .. شوية الدره اللى عندى يدويك يكفو العيال..

وقال حمدان:

ـ ماقضلش إلا نبيع البهيمة!

وقال المعلم قورة الحانوتى:

ـ على رأى المثل: «فقر وقنزحة» .. ما قولنا كفاية علينا الراديو والله ما انا دافع ولا مليم .. كلكم عارفين السنة دى فاتت زى الطين .. ربنا يمد فى أعماركم .. جرى ايه فى الدنيا، اللى ما حد راضى يموت!

وقال فتوح:

ـ فال الله ولا فالك..

وقال الشيخ تمام

ـ يعنى يفوت رمضان كده سكيتى .. دى ماحصلتش فى كفرنا من عشرين سنة .. ماتشوفوا لكم تدبيره!

وعاد فرج الله يقول:

ـ ده حتى كفر حتاتة مسهر السنة دى الشيخ الشلهونى .. عاملها بالعند فينا..

ـ الشلهونى .. وده ييجى فين جنب الشيخ عبد الباسط..

وقال الشيخ تمام:

ـ والله فكره .. إيه رأيكم نتفق مع أهالى حتاتة، ونحط اللى معانا على اللى معاهم، ونجيب الشيخ عبد الباسط!

وقال فتوح :

ـ وده اسمه كلام .. طيب حيسهر عندنا، ولا عندهم؟ .. ما هى دى رخره عقده!..

وقال الشيخ تمام:

ـ ياسيدى تنحل .. يسهر عندنا ليله وعندهم ليلة!

وقال فرج الله:

ـ وليلة القدر عندنا ولا عندهم .. أهى دى رخره مهمة!

وعاد الشيخ تمام يقول :

ـ ياجماعة ماضيقو هاش أمال .. عندنا ولا عندهم ما هو كله واحد .. كلنا مسلمين وموحدين بالله.. واللى ييجى عليه الدور فى ليلة القدر تبقى السهره عنده!

وقال المعلم قورة الحانوتى:

ـ أنا مش دافع!

ورد عليه عوضين فى حدة:

ـ لا والله لا نت دافع .. أحسن والله لنحلف كلنا بالطلاق ما نموت ولا ندفن على إيديك !

وضج المؤتمر الصغير بالضحك

وذهب وفد من كفر ممونة لمفاوضة كفر حتاتة، واتفق الكفران على الاشتراك فى دعوة الشيخ عبد الباسط لإحياء ليالى رمضان..

وعندما انتهى الشهر المبارك .. عقدت خمس زيجات بين كفر ممونة وكفرحتاتة!

الإنسان فى السماء

مـــات ..

ولم يحس أحد بموته.. ذهب دون أن تترك قدماه أثرا فوق طريق الحياة .. ولو أن كلبا نفق فى الطريق لتجمع الناس حوله، وتهامسوا، وربما انقبض قلب بعضهم، وربما استدعوا مندوب جمعية الرفق بالحيوان .. ولكن من سؤ حظ ، عبد المتجلى، ـ وهذا هو اسمه ـ إنه ينتمى لنوع من المخلوقات كثيرة العدد .. عددها أكثر من عدد الكلاب .. ومن عدد البغال .. لن يحدث شىء إذا نقص هذا العدد الكبير واحدا .. لن يتنهد أحد .. ولن يهتم أحد .. وهكذا مات عبد المتجلى فى صمت .. كما عاش حياته كلها فى صمت.. لم يشك، ولم يتأوه، ولم يستغث حتى بالله .. وإنما ابتلع آلامه وعذابه فى صمت .. إلى أن سمع صوت عظامه وهى تتفكك، وأحس بصدره يضيق، وأنفاسه تخمد .. وصمت أيضا .. لم يعرف أنه يموت .. إلى أن مات!..

وكل ما حدث بعد ذلك أن تضايق الجيران، سكان حى زينهم، من الرائحة العفنة التى تنبعث من الجحر الضيق الحقير

الذى يسكنه « عبدالمتجلى» فاقتحموه.. ووجدوا الرجل ميتا، فحملوه فوق أكتافهم : لا لأنه ميت، بل ليتخلصوا من الرائحة العفنة.. ودفنوه فى حفرة فى مكان من الجبل القريب حفرة لا يميزها لوح من الحجر أو من الخشب يحمل اسم « عبدالمجلى» ويحتفظ بذكرى عذابه فى الدنيا .. حفرة لم تلبث أن أصبحت قطعة من طريق يدوسه الناس بالأقدام !

هكذا مات عبدالمتجلى ..

فى صمت .. وبلا مناقشة ...!

ولكنه ما كاد يصل إلى السماء حتى استقبل بضجة لم يسمع مثيلها فى الدنيا .. وتجمع فريق من الملائكة ينثرون فوق رأسه أكاليل من النور، وينشدون من حوله أنغاما أعذب من كل ما تذيعه محطة الإذاعة، ويعدون له عرشا من الذهب الموسد بالحرير، فى أبهى قصر من قصور الجنة .. ولكن فريقا آخر من الملائكة لم يشتركوا فى هذه الفرحة، ولم يرحبوا باستقبال عبدالمتجلى، إنما وقفوا يتهامسون ويتناقشون وينظرون إلى عبدالمتجلى فى رثاء يكاد يكون إزادراء .. وعندما مر بهم، أولوه ظهورهم، واستغرقوا فى مناقشاتهم...

وسأل أحد الصالحين من أهل الجنة :

- ما هذه الضجة ؟!

وأجابه ملاك :

- ألا تدرى .. لقد وصل عبدالمتجلى !

وقال الرجل الصالح :

- عبدالمتجلى !! من هو عبدالمتجلى هذا ؟! لم نسمع بهذا الاسم بين الأنبياء، أو الصالحين، أو الشهداء !!

وقال الملاك :

- إنه إنسان كنا جميعا فى انتظار وصوله إلى السماء، فهو يمثل مشكلة يدور حولها خلاف كبير .. هل هو يستحق الجنة، أم النار ؟ ..

وقال الرجل الصالح :

- هل هو كافر ؟

وقال الملاك :

- لا ..

- قال الرجل الصالح:

- مؤمن إذا ؟!

قال الملاك :

- لا ..

قال الرجل الصالح :

- وقائمة ذنوبه ؟

قال الملاك :

- ليست له ذنوب !

قال الرجل الصالح فى تعجب :

ـ إذن له حسنات ؟!

وابتسم الملاك وقال :

ـ لا .. ليس له حسنات !

قال الرجل الصالح ، وقد استبدت به الحيرة :

ـ كيف قضى حياته الأولى ؟ ..

قال الملاك :

ـ فى صمت !!

قال الرجل الصالح :

ـ وما حكم الصمت ؟ ..

قال الملاك :

ـ هذا هو سر الضجة .. إن الملائكة مختلفون بعضهم مع بعض، وقد أرادت مشيئة الله أن تشكل محكمة يقدم أمامها عبدالمتجلى، وسيدافع عنه ملاك، ويتولى الاتهام ملاك آخر .. ألا تأتى .. إن المحاكمة علنية، والحضور مباح لأهل الجنة ..

وعقدت المحاكمة ..

فتحت الجلسة ..

وتقدم عبدالمتجلى، وهو صامت يرتجف، ولا يدرى من أمره شيئا .. وحاول أن يرفع عينيه إلى قضاته فبهره النور الذى يشع

من حولهم .. فأرخى عينيه سريعا .. ووقف صامتا .. مرتجفا .. لا يدرى مصيره ..

وارتفع صوت ملاك الدفاع .. صوت رقيق رائق كنغم الكمان .ـ يا حضرات القضاة .. لقد عاش عبدالمتجلى متدائرا من العذاب فى معطف من الصمت ..

وقاطعه ملاك الاتهام فى صوت جميل ولكنه عريض كصوت السكسفون :

ـ وما هذه التشبيهات الدنيوية .. إننا لا نريد بلاغة !

وعاد ملاك الدفاع يقول :

ـ إن هذا الرجل تحمل من العذاب أكثر مما تحمل يعقوب، ورغم ذلك لم يعبر عن شكواه .. و ..

وقاطعه صوت كبير القضاة، صوت رهيب :

ـ تكلم فى الوقائع .. الوقائع من فضلك ..!

وابتسم ملاك الدفاع وعاد يقول :

ـ لقد ولد عبدالمتجلى فقيرا، وماتت أمه بعد أن أرضعته، وتزوج أبوه السكير من امرأة انتصر عليها الشيطان، فعذبته .. كانت تكويه بالنار .. وكانت تلقى له بالخبز الجاف .. بينما تأكل هى اللحم والكنافة .. وكانت ترسله ليعمل عند الحداد ينفخ فى النار ثم تستولى على أجره الضئيل .. ورغم ذلك لم يشك ولم يتأوه ولم يعترض .. ولم يرفع إلينا دعوى أو استغاثة .. رجاء أبوه المجرم فى إحدى ليالى الشتاء وجذبه من شعره وألقاه

خارج البيت .. فلم يعترض .. إنما سار فى الطريق .. جاع ولم يحاول أن يأكل .. وبرد ولم يحاول أن يتدفأ .. إنما كان يقدم نفسه لأى عمل، فإذا وجد عملا لا يسأل عن الأجر .. وإذا لم ينقد أجرا لا يطالب بشيء .. إنه صامت دائما .. صامت .. صامت وحدث مرة أن صدمته سيارة فوقع الأرض شجوج الرأس فلم يصرخ، ولم ينظر إلى السيارة التى صدمته .. وأخذه الرجل صاحب السيارة، وجعله خادما فى الجاراج، وداوى جرح رأسه بأن وضع فوقه حفنة من الطين .. وبقى عبدالمتجلى يخدم فى الجاراج، ويؤدى بجانب عمله كل ما يأمره به السيد أو أحد من حاشية السيد .. ثم أمره السيد أن يتزوج إحدى الخادمات، فتزوجها .. ورفضت الخادمة أن يقربها أو يضاجعها، ورغم ذلك فقد وجد عبدالمتجلى نفسه أبا بعد خمسة أشهر .. فلم يعترض .. ولم يثر .. ولم يرفع رأسه إلينا فى السماء ليتساءل عن حكمة الله .. ثم طرده السيد بلا سبب ودون أن ينقده أجرا طول مدة خدمته .. وهجرته زوجته .. وعاش مع الولد الصغير المنسوب إليه .. يسير فى الحياة .. ويقوم بأى عمل .. دون أن يعترض .. ودون أن يطالب .. بل دون أن يشحذ .. تصوروا يا حضرات القضاة .. إنه لم يشحذ أيضا .. وعندما بلغ الولد الصغير الخامسة عشرة من عمره .. طرد عبد المتجلى من الجحر الحقير الذى كانا يقيمان فيه .. فلم يعترض عبدالمتجلى .. ولم يتصد لإرادة الولد الصغير الذى رباه .. إنما سار فى الحياة بلا هدف، ولا أمل، ولا رأى، ولا شكوى، ولا اعترض، ولا ..

وهنا انتفض ملاك الاتهام وقال بصوته العريض :

ياحضرات القضاة .. إنى لا أعترض على كل هذه الوقائع .. إنى أعترف بها، وعلى استعداد لأن أزيدكم منها .. وهذه الوقائع بالذات هى عناصر اتهامى لهذا الرجل .. وإنى أتهم هذا الرجل بأنه تحدى قدرة الله وحاول تعطيلها .. لقد وهبه الله صوتا ليشكو به إذا حدث ما يستوجب الشكوى .. وأن يصرخ إذا كان في حاجة إلى الصراخ .. ووهبه عقلا ليدبر شئون نفسه فى سبيل إسعادها .. ووهبه مجتمعا يعيش فيه ويتعاون معه .. ووهبه إرادة يتحدى بها الظلم ويدافع عن نفسه .. ولكن هذا الرجل المسمى «عبد المتجلى» عطل قدرة الله فى خلقه .. لم يستعمل صوته، ولا عقله، ولا مجتمعه، ولاإرادته .. إنه بذلك يتحدى الله .. وإنى أحكم على هذا الرجل بالجحيم!

ودوى صوت القاضى الرهيب:

ـ ليس من حقك أن تحكم هنا بشئ .. إننا لسنا محكمة دنيوية .. ولكن فقط قل رأيك .. واشرح وجهة نظرك!

وقال ملاك الاتهام وقد خفت صوته:

ـ رأيى أن الامتناع عن استعمال قدرة الله التى وهبها للإنسان جريمة توازى جريمة الكفر بالله ..

وصمتت الأصوات .. وساد جو رهيب قاعة المحكمة التى أقيمت جدرانها من النور ..

وعبد المتجلى واقف .. صامت .. مرتجف .. لايدرى شيئا .. وإن كان قد خيل إليه أنه المقصود بكل ماقيل ..

ودوى صوت رئيس المحكمة يقول:

ـ ياعبد المتجلى..

لم يجب عبد المتجلى.. خيل إليه أن الصوت ينعبث من داخله، لاممن يناديه!

وعاد الصوت يدوى:

ـ ياعبد المتجلى.. ارفع رأسك!

ورفع عبد المتجلى رأسه، وملأ النور عينيه.. وسمع صوت القاضى يقول له:

ـ قل لنا ياعبد المتجلى.. ماذا تشهتى عندما تكون فى الجنة؟ ماذا تطلب؟. تكلم.. لا تخف ياعبد المتجلى..

وقال الإنسان بعد تردد:

ـ هل أستطيع أن أطلب أى شئ؟..

قال القاضى فى صوت مشجع:

ـ أى شئ.. كل ماتريدة تحت أمرك!

وقال الإنسان:

ـ صحيح؟!

ودوت القاعه بأصوات الملائكة من الفريق المؤيد:

ـ صحيح.. صحيح.. تكلم.. اطلب ماشئت..

وقال الإنسان وقد ارتفعت لأول مرة ابتسامته، وتحلب ريقه:

ـ أطلب طبق فول بالزيت كل صباح.. ورغيف عيش.. ثم

استدرك بسرعة:

ـ رغيفين!!

ووقع على القاعة صمت مخيف.. ثقيل.. ونكس الملائكة المؤيدين رؤوسهم خجلا.. ولووا شفاهم ازدراء لهذا الشئ الذى خلقه الله على الأرض.. وأشاح ملاك الدفاع برأسه كأنه ندم على الدفاع عن هذا المخلوق..

وابتسم ملاك الاتهام ابتسامة الشماتة والنصر.. وساءل عبد المتجلى نفسه:

«ترى.. هل طلبت كثيراً!؟».

ومالت رءوس القضاة بعضها إلى بعض، وأخذوا يتهامسون.

وقال كبيرهم:

ـ لا مفر.. الجنة!

وسأل أحد القضاة:

ـ والحيثيات؟!..

قال كبير القضاة همسا:

ـ الرحمة!!

* * *

وصدر الحكم بإدخال عبد المتجلى إلى الجنة..

ولم يفرح الملائكة المؤيدين.. ولم يقيموا احتفالا، ولا أنشدوا ترتيلا.. دخل الإنسان الجنة.. رثاء له!!

حائر بين الحلال والحرام

إنه رسام ..

والناس لا تعرفه.. الناس تعرف ممثلى السينما والمطربين، والكتاب، ولكنها لا تعرف الرسامين.. وليس هذا ذنب الرسامين، إنه ذنب الناس.. الناس عندما لايزال ذوقهم الفنى بليدا، خمولا، لا يتحرك لفن الرسم..

وقد عرفته منذ بدأ يخط خطوطه الأولى على الورق.. وكان فقيرا..

ورغم فقره رفض، بعد أن تخرج فى كلية الفنون الجميلة، أن يشتغل مدرسا.. كان يعتقد أنه لا يستطيع أن يعمل شيئا إلا أن يرسم.. وكان يضحك وهو يتصور نفسه واقفا بين التلاميذ يعلمهم الرسم، ويقول بصوته الذى ينطلق دائما كأنه لا يتعمد أن يسمعه أحد :

– بأه ده معقول.. مش لما اتعلم أنا الأول !

وكان يدور على الدكاكين الصغيرة.. دكاكين البقالة والخردوات.. ويكتب اليافطات أو يرسم بعض الزخارف، ويأخذ

أجره ليشترى الألوان والفرشاة التى يرسم بها، وقطع القماش التى يرسم عليها.. ثم يذهب إلى غرفته الصغيرة فى حى «العطارين» ويرسم.. يقضى الليل كله وهو يرسم ويصبح عليه الصباح وهو يرسم ولم أكن أدرى متى ينام؟ ومتى يأكل؟ إنه لا ينام إلا إذا سقط من التعب. ولا يأكل إلا إذا شعر بألم فى معدته وتذكر أنه يجب أن يأكل..

وكان يعيش فى أزمة نفسية حادة.. ولم يكن فقره هو سر أزمته.. إنه لم يشعر أبدا بفقره، ولم يشعر أن هنالك شيئا يريده ولا يستطيع أن يحصل عليه. كان سر أزمته هو حيرته.. حيرة عجيبة.. كان حائرا بين الحلال والحرام.. ما هو الحلال؟.. وما هو الحرام؟.. ولماذا الحلال؟.. ولماذا الحرام؟..

وكان وهو صبى صغير يصلى.. علمه أبوه الصلاة، وملأت له أمه رأسه بقصص الملائكة والأنبياء.. فكان يقبل على الصلاة كأنه يخطو إلى عالم رائع جميل.. فيه جنة، وفيه ملائكة، وفيه شيوخ أتقياء يبتسمون من خلال ذقون جليلة بيضاء.. وكان يقبل على هذا العالم فى شوق.. ويقبل عليه وهو منتعش أنعشه خياله، وأنعشه الماء الذى توضأ به.. ولم يكن يسأل..

ولم يكن قد عرف بعد كلمة : لماذا.. كانت أمه تحتم عليه أن يلبس جوربا أسود طويلا عندما يقف للصلاة، حتى يغطى ركبتيه من تحت بنطلونه القصير.. فلا يسألها لماذا؟ وكان أبوه يحتم عليه أن يغطى رأسه بالطربوش وهو يصلى، فيضع

الطربوش على رأسه دون أن يسأل : لماذا؟ وكانوا يأخذونه إلى زيارة الأضرحة، ليقرأ الفاتحة.. ويرفع كفيه ويدعو، ثم يمسح وجهه بكفيه.. ولا يسأل : لماذا؟

ولم يكن فى عقله حرام وحلال.. كان ما يفعله.. يفعله لأنه يجب أن يفعله.. وما لا يفعله.. لا يفعله لأنه لا يجب أن يفعله..

ولم يكن يسأل نفسه : لماذا يجب؟.. ولماذا لا يجب؟..

والعالم كله فى عينيه، عالم صبيان أطهار، يحبون أمهاتهم، ويحبون آباءهم، ويحبون الله.. ويصلون... ويلعبون! ولكنه بدأ يكبر.. وشىء فى رأسه بدأ يكبر أيضا.. وبدأ يفاجأ بكلمة : «لماذا» تقف فى وجهه!؟

كان فى الرابعة عشرة من عمره عندما سأل نفسه : لماذا تصر أمى على أن تلبسنى هذا الجورب الطويل السخيف كلما وقفت للصلاة؟

– لأغطى به ركبتى..

– ولكن لماذا يجب أن أغطى ركبتى؟

– لأنهما عورة..

– ولكن ما هى العورة؟

– العورة هى كل ما يثير مرآة نفوس الناس..

– ولكن ركبتى لا تثيران نفوس الناس، بدليل أنى ألبس بنطلونا قصيرا يكشف عنهما.. و..

وتستمر المناقشة بينه وبين نفسه.. مناقشة يشدها من ناحية عقله المنطلق، ويشدها من ناحية أخرى عقل أبيه وأمه وما وضعاه في قلبه من أحاسيس دينية..

إلى أن انتهت المناقشة بثورة.. ووقف يصلي دون أن يلبس جوربا طويلا، ودون أن يضع الطربوش على رأسه.. ولم تكن ثورته على الله ولا على الدين... ولكن ثورته كانت على صور لا يستطيع عقله أن يهضمها...

ورغم ثورته فهو خائف.. خائف أن يكون على خطأ.. ويدفعه خوفه أحيانا إلى أن يعود ويلبس الجورب الطويل، ثم تعود ثورته وتدفعه إلى أن يخلع الجورب الطويل..

وبدأت كلمة «لماذا» تكبر أكثر.. وأكثر.. والمناقشات بينه وبين نفسه لا تهدأ.. إنه يناقش كل شيء.. ولا يستطيع أن ينتهي إلى قرار في أي شيء.

- وتعب.. وأدى به التعب إلى أن أقلع عن الصلاة.. لا لأنه كفر بالله.. ولكن فقط لأنه تعب من مناقشة مواضيع لا يستطيع عقله الصغير أن يصل إليها.. إنه يحاول أن يهرب.. يهرب من المناقشة.. ولكن الله في قلبه.. يؤمن به.. ويخافه.. ويلجأ إليه.. والنقاش النفسي لا يكف عنه رغم أنه لم يعد يصلي..

وإحساسه الفني يشتته العذاب.. عذاب الحيرة.. وبدأ النقاش يتخذ اتجاها جديدا :

ما هو الحلال؟.. وما هو الحرام؟.. هل الكذب حرام؟..

إن والده يكذب.. كذبات صغيرة بيضاء، لا تؤذي أحدا.. فهل يدخل والده النار لأنه يكذب؟ لا.. إنه لا يوافق على أن يدخل والده النار..

ربما لم يكن الكذب حراما.. إن الحرام هو إيذاء الناس..

فإذا كذبت ولم تؤذ أحدا فالكذب ليس حراما.. بل ربما لو كذبت لتريح الناس وتسعدهم، لأصبح الكذب حلالا..

وما هي الفنون؟ إنها الكذب.. والفنانون ليسوا سوى قوم برعوا في الكذب.. الممثل هو رجل يقف أمامك ويكذب عليك وينقلك إلى حياة يصورها في قصة.. و.. هل يدخل الفنانون أيضا النار لأنهم يكذبون ليسعدوا الناس.. كذبهم حلال! ولكن.. هل هذا صحيح؟

من يحدد إذا كانت هذه الكذبة تؤذي، أو لا تؤذي؟

ليس هناك مقياس..

هل نترك لكل فرد أن يحدد مدى حقه في الكذب؟

هذه فوضى.. إن القاتل يعتقد أن من حقه أن يقتل.. والسارق يعتقد أن من حقه أن يسرق.. فلو اعترفنا للناس بحق الكذب لتمادوا فيه..

ربما كان من الأفضل أن نعتبر الكذب ـ كل أنواع الكذب ـ حراما..

ولكن .. و ..

وتستمر المناقشة.. وتشتد حيرته بين الحرام والحلال.. ويتعذب..

وقد ظهرت هذه الحيرة فى كل لوحاته التى رسمها..

ولا تشعر فى كل هذه اللوحات أنه يبدى رأيا، أو ينتقد.. لا.. إنه حائر.. مجرد حائر تعذبه وتقلقه حيرته!

وبلغ قمة العذاب عندما أحب.. أحب امرأة متزوجة.. وأحبته..

وبدأ يسأل نفسه، هل حبه حرام أم حلال؟

ولم يكن يناقش موضوع العلاقة الجنسية.. إن العلاقة الجنسية فى نظره أتفه من أن تناقش.. ولكنه كان يناقش العاطفة.. عاطفته.. حبه.. هل هو حرام أم حلال؟

إنه حرام.. كل الناس يقولون إنه حرام.. ثم إنه يعتدى على حق رجل آخر، والاعتداء على حقوق الغير حرام، لأن فيه ايذاء.

– ولكن ما هو حق الغير الذى اعتدى عليه؟

– ان هذه المرأة ملك لرجل آخر..

– كيف تكون المرأة ملكا لرجل.. إنها ليست متاعا.. إنها شخصية كاملة مستقلة.. وقد تزوجت بلا حب.. بل لم تختر زوجها.. اختاروه لها.. وتزوجت لأنها كان يجب أن تتزوج.. تماما كما يلتحق الشاب بوظيفة.. والوظيفة لا تمنعها من الحب.. إن الموظفة عندما تحب لا تعتبر أنها خانت مدير

الشركة.. ولا يعتبر حبيبها معتديا على حقوق الشركة.. وهذا الزواج ليس سوى شركة.. شركة لتربية الأولاد، وللسعى فى الحياة.. وهذا الزوج ليس سوى مدير شركة!! و.. ويخاف هذا المنطق.. ويرفع عينيه إلى السماء كأنه يبحث عن جوابا لحيرته.. ويطن صوت فى أذنيه كالصراخ :

– لا.. الزواج ليس وظيفة.. إنه ليس مجرد شركة.. إنه ذوب شخصين فى كيان اجتماعى واحد.. وأنت لا تعتدى بحبك على الزوج لوحده، إنك تعتدى على المجتمع...

ويشتد خوفه.. فيهرب من حبه.. يهرب من حبيبته.. ثم لا يلبث أن يغلبه حبه، فيعود إليها.. ثم يهرب مرة أخرى.. الحلال يشده من ناحية والحرام يشده من ناحية أخرى.. وهو حائر.. ولم يعد يحتمل حيرته.. مرض.. أصيب بالسل.. وترك السل يسعى فى رئتيه حتى أشرف على الموت..

وذهبت إلى زيارته وهو راقد فى فراشه..

وقال لى وعلى شفتيه ابتسامة ضعيفة تطل على وجهه الأصفر:

– أتعلم ما هى الفترات السعيدة التى عشتها.. إنها الفترات التى كف خلالها عقلى عن النقاش، وخلصت روحى إلى الله.. فاستكانت، وهدأت.. يبدو أننا يجب أن نلغى عقولنا حتى نتمتع براحة الإيمان..

قلت وأنا أشفق عليه :

– ان الذين يضعون العقل فى خدمة الروح يصلون إلى الإيمان.. والذين يضعون الروح فى خدمة العقل، يحتارون. ويتعبون.

قال : ماذا تقصد؟!

قلت :

– إن الإيمان راحة للنفس، يجب أن تسلم به قبل أن تفكر.. ثم بعد ذلك تفكر فى حدود هذا الإيمان.. إن الإيمان كالدواء الذى يكتبه لك الطبيب.. والطبيب هنا هو الله.. وأنت لا تناقش الدواء قبل أن تتناوله.. لا تسأل عن مركباته وكيفية صنعه.. ولو سألت.. تعبت، واحترت.. إنك لست كيميائيا.. وربما أدى بك السؤال، إلى رفض الدواء، وعز عليك الشفاء..

ونظر إلىّ كأنه لم يفهمنى، ثم قبض على يدى بيده الهزيلة المعروقة، وقال وعيناه تلمعان:

– كيف تفرق بين الحلال والحرام؟

قلت :

– إن التعاليم التى نتلقاها والتي تفرق بين الحلال والحرام وضعت لتنظيم المجتمع.. إنها كقوانين المرور.. إنهم يحتمون علينا أن نسير على اليمين، مع أن السير على الشمال ليس مستحيلا.. ولكننا نسمع الكلام ونسير على اليمين حتى لا يصطدم بعضنا ببعض.. إنه مجرد تنظيم لتحركات المجتمع..

أما من ناحية الفرد.. فإن كل آدمى فيه لمسة من الله تسمى الضمير.. وهذا الضمير هو الذى يفرق بين الحلال والحرام.. الحلال هو ما لا يؤذى نفسك أو غيرك، والحرام هو ما يؤذيك أو يؤذى غيرك.. والضمير هو مقياس حساس لما تسببه تصرفاتك من أذى..

قال وهو يرتعش :

– هناك أفراد بلا ضمير..

قلت :

– هؤلاء لم يعرفوا الله..

وسكت طويلا وأنفاسه الضعيفة تتمزق على شفتيه، ثم برقت عيناه كأنه رأى أمامه نورا، وقال كأنه لا يتعمد أن يسمعه أحد :

– هناك حقيقة واحدة لا تحتمل النقاش..

قلت :

– ما هى؟

قال وظل ابتسامة يكسو وجهه النحيل :

– الموت!!..

ثم التفت إلى مرة واحدة، وعاد يقبض يدى بعنف، قائلا :

– أنى أريد الموت.. أتدرى لماذا؟

قلت وأنا أربت على يده وأحاول أن أرفه عنه بابتسامتى :

– لماذا؟

قال :

– لأنى بعد الموت سأعرف ما هو الحلال والحرام.. و ..

وسكت برهة .. ثم ازداد اتساع عينيه واشتد بريقهما، وصرخ :

– هل سأعرف.. هل هناك بعد الموت.. و ..

وقاطعته بسرعة :

– نعم .. ستعرف .. ستعرف ..

وألقى رأسه على الوسادة فى إعياء، وتمتم :

– لا أدرى..

رجل اعلن إسلامه

إن فى القاهرة ثلاثة ملايين قصة.. وأكثر.. إن كل إنسان يمر بك هو قصة.. قصة تختفى خلف وجه.. فإذا ما استطعت أن تصل خلف هذا الوجه، رأيت حياة عجيبة.. حياة لا تخطر ببالك.. حياة لم تكن تعتقد أنها تعيش فى القاهرة.. وتذهل!.

وأنا أذهل كلما سمعت قصة عجيبة تعيش فى المدينة التى أعيش فيها.. ويبدو أنى سأقضى عمرى كله مذهولا.. فإنى مهما عشت لن أستطيع أن استمع إلى خمسة ملايين قصة.. ستبقى دائما قصة لم أسمعها بعد..

وهذه قصة جاءتنى فى خطاب من الدانمرك..

صاحب الخطاب جندى من جنود البوليس الدولى.. والفتاة التى تشاركه قصته أعرفها.. ولكنى لم أكن أعرف أبدا ـ ولا أتخيل ـ أنها تخفى خلف وجهها هذه الحياة..

واقرأوا معى هذا الخطاب..

أحببت القاهرة.. إنها مدينة تأخذ القلب.. وقد عشت فيها وقلبى مأخوذ، أسير فى أحيائها كأنى أسير فى مدينة مسحورة بنيت فوق السحاب.. كل أيامى فيها كانت أشبه بالخيال.. ثم

أفقت من خيالى يوما لأكتشف أن قلبى سقط منى.. سقط فى يد فتاة من القاهرة..

ولم يكن حبى مجرد خيال انسقت فيه.. أحببتها.. لم أحبها كسائح.. لم أحبها كمغامر.. لم أخضع لنزوة آثارها الجو الشرقى المثير الذى أحاطتنى به القاهرة.. لا لقد أحببتها بعقلى.. بكامل وعيى.. أحببتها كأنى عشت معها العمر كله، كأنها فتاة من الدانمرك، أو كأنى شاب من القاهرة..

وتسلل الحب فى بساطة.. دون أن أدرى أنه الحب..

التقينا فى حفلة، وقدمها إلى زميلى فى فرقتى، كانت له صديقة يعرفها.. وقضينا المساء كله نتحدث.. حديثا عاديا مهذبا.. ثم التقينا نحن الأربعة ـ زميلى وصديقته، وهى وأنا – فى اليوم التالى.. وفى اليوم الذى يليه التقينا وحدنا، ورحنا نطوف بمعالم القاهرة، والحديث بيننا لا ينقطع.. حديث طويل يمكن أن يستمر العمر كله.. ولا أذكر عما كنا نتحدث ولكنها مثقفة.. أكثر ثقافة من أى بنت فى الدانمرك.. وكان حديثا كله ثقافة..

وقضينا بعد ذلك أسبوعا نلتقى فيه كل يوم.. وقدمتنى إلى عائلتها.. عائلة بسيطة طيبة.. كنت أشعر وأنا جالس بين أفرادها كأن الدنيا كلها حلوة آمنة، ليس فيها مشاكل، ولا حروب.. ثم..

انتهت إجازتى وعدت إلى فرقتى المعسكرة فى غزة.. وتركت حبيبتى.. تركتها دون أن نتبادل كلمة حب.. بل دون أن أنتبه إلى أنى أحبها..

وهناك.. وسط الجنود، ووسط الصحراء.. بدأت أستعيد أيامى معها، ثم وجدت نفسى أسير هذه الأيام.. لا أستطيع أن أتحرر منها، ولا أستطيع أن أفكر فى غيرها.. لم يعد لى يوم أذكره وأعيش فيه إلا يوم قضيته معها..

وحاولت أن أنسى.. حاولت أن أقنع نفسى أنه لم يكن بينى وبينها سوى صداقة دفعتنى إليها غربتى عن بلدى وعن أهلى... حاولت كثيرا.. ولكنى لم أستطع.. وعرفت.. عرفت أنى أحبها..

وبلغت بى لهفة الحب إلى حد أن فررت من فرقتى.. فررت من واجبى كجندى.. وعدت إلى القاهرة.. إليها..

ولم أحاول الاختفاء فى القاهرة.. بل إنى لم أحس بإحساس الجندى الهارب حتى أختفى.. كل ما كنت أحس به أنى أريد أن أراها، وأن أبقى معها..

والتقينا.. وبدأ حديثنا الطويل ينقطع، وكل منا ينظر إلى الآخر، كأنه حائر فيه.. حائر فى عواطفه نحوه..

وبدأت يدى تلمس يدها لمسات سريعة، فتنتفض يدها فى يدى، ويكتسى وجهها بلون الورد..

هل هى تحبنى؟

لا أدرى.. لا أدرى ولا أستطيع أن أعيش معها العمر كله، وأنا لا أدرى.. فكان يجب أن أسألها.. ولكن أخاف أن أسألها.. أخاف من جوابها..

وبدأت أحدثها عن حياتى الخاصة، التى لم أكن قد حدثتها بها من قبل..

قلت لها إنى متزوج.. فلم يبد على وجهها الذعر ولا الهلع.

وقلت لها إنى أب لأربعة أولاد أكبرهم فى العاشرة من عمره.

فابتسمت فى حنان..

وقلت لها إنى منفصل عن زوجتى رغم أننا لم نطلق.. فدهشت.. ولكنى شرحت لها حياتنا فى الدانمرك.. إن كثيرين من الأزواج منفصلون عن زوجاتهم دون طلاق.. كل منهم له حياته الخاصة..

وصدقتنى.. ثم قلت لها إنى أحبها..

وترددت قليلا، ثم ابتسمت وقالت :

- إنى سعيدة بحبك لى..

ولم أفهم ما تعنيه.. ولم تحاول هى أن تعيننى على الفهم.. وأخيرا قلت لها :

- إنى أريدك زوجة..

وتعقد جبينها كأنها غضبت، ثم قالت:

- إنك لن تعلم مدى حاجتك إلى الزواج بى، إلا بعد أن تطمئن على مصير أولادك من زوجتك..

وسكتت.. سكتت دون أن أدرى إذا كانت موافقة على الزواج أم ليست موافقة.. وكل هذا حدث خلال شهرين عشتهما معها فى القاهرة، هاربا من فرقتى.. ثم قررت أن أعود إلى الفرقة لأسعى إلى العودة إلى بلدى، حتى أقرر مصير زوجتى وأولادى، ثم أعود إلى حبيبتى..

وسافرت إلى غزة..

وهناك اكتشفت أن فرقتى قد غادرت غزة ورحلت إلى الدانمرك..

واكتشفت أكثر من ذلك.

اكتشفت أن القيادة العسكرية، بعد أن عجز البوليس الحربى عن العثور على، اعتبرتنى مفقودا.. كأنى قتلت.. مت..

وعندما اكتشفت القيادة أنى لازلت على قيد الحياة قبضوا علىّ.. أدخلونى السجن باعتبارى جنديا هاربا، ثم أرسلونى إلى الدانمرك لأحاكم هناك..

وعندما وصلت إلى بلدى، عرفت أن زوجتى قد بدأت فى اتخاذ إجراءات الطلاق باعتبارى مفقودا، وبدأت تطالب باسم أولادى.. بالمكافأة التى يصرفها الجيش للمفقودين من الجنوب..

وخاب أمل زوجتى عندما رأتنى أمامها.. لازلت حيا.. ولكنى طمأنتها ورجوتها أن تعتبرنى ميتا وساعدتها على إجراءات الطلاق، وتعهدت لها بما يكفيها، ويكفى أولادى العمر كله..

وقدمت إلى المحاكمة.. وحكم عليّ بالسجن سنة.. أنا الجندى الهارب..

أتدرى ماذا قال المحامى دفاعا عنى وهو يلتمس لى البراءة.. قال إنى وقعت أسير سحر القاهرة، إلى حد أنى نسيت واجبى..

المهم.. لقد قضيت العام فى السجن وأنا أحاول أن أنسى حبيبتى.. وأنسى القاهرة.. لم أرسل لها أى خطاب خلال هذا العام.. ولكن.. أتدرى ماذا كنت أفعل، وأنا أتظاهر بمحاولة النسيان؟ كنت أدرس الدين الإسلامى!!

قرأت القرآن كله.. مترجما.. وقرأت كل ما وصل إلى يدى من شروح الإسلام.. وكنت أحس وأنا أدرس الإسلام بأنى أكتشف دنيا جديدة.. أحسست كأنى لم أبدأ حياتى بعد.. كأنى أولد من جديد.. وأحسست بقوة.. قوة الإقبال على حياة لم أعشها بعد.. حياة عريضة لآمال كبار..

وخرجت من السجن.. خرجت وأنا أكثر لهفة على حبيبتى.. إننى أريدها.. أريدها ليهدأ قلبى بعد هذا القلق الطويل الذى عشت فيه.. أريدها لتقف بجانبى فى الدنيا الجديدة.. لتشاركنى آمالى الكبار..

وأرسلت لها خطابا طويلا.. قلت لها إنى مستعد أن أعتنق الدين الإسلامى، إذا وافقت على الزواج.. وقلت لها كل ما تريد فتاة أن تعرفه عن الرجل الذى تتزوجه.. عائلتى.. وثروتى، وشهاداتى.. و.. و.. ثم قلت لها أننى بعد أن أعتنق الإسلام لن أستطيع أن أعيش فى الدانمرك.. إن فى بلادى موجة من

التعصب ستغلق فى وجهى أبواب الرزق.. ولكنى مستعد أن أترك بلدى وأعيش معها مسلما فى أى مكان من الأرض.. وانتظرت ردها..

أتدرى بماذا ردت على؟..

قالت لى فى خطاب قصير: «الدين إيمان، وليس مجرد إجراء من إجراءات الزواج»! هذا كل ما قالته، وفسرته فى عدة سطور..

لم تقل إنها قبلت الزواج بى.. ولم تقل إنها ترفض الزواج بى.. وجننت..

إنها دائما هكذا.. غامضة غموض البرق.. تضع رأيها فى جمل فلسفية مبتورة كأنها تختبر ذكائى.. كانت تعذبنى..

وأرسلت لها خطابا غاضبا ثائرا، أطالبها فيه بأن تعلن رأيها بصراحة.. هل تريدنى زوجا، أم لا تريدنى زوجا.. وجاء ردها..

رد قصير.. أكثر صراحة، ولكنه لا يخلو من أسلوبها الغامض، وعقليتها المتفلسفة..

قالت لى:

«إن أولادك الأربعة أولى بك منى، وأولى بك من نفسك»!!

وفهمت أنها ترفض.. وتملكتنى ثورة عليها.. لكن، لماذا أثور عليها؟

إنها لم تخدعنى.. وفى كل أحاديثنا الطويلة لم تقل لى مرة إنها تحبنى.. ولم تعطنى حقا تعطيه فتاة لحبيبها..

ربما كان كل خطئها أنها تركتنى أحبها..

لا .. ليس لها ذنب.. إنها فتاة رائعة.. فاضلة.. إنها غير البنات..

وكتمت ثورتى، وأغلقت قلبى على حبها...

أتدرى ماذا فعلت بعد ذلك؟

اعتنقت الإسلام.. اعتنقته بلا ثمن.. وبلا منفعة خاصة.. اعتنقته لا كإجراء شكلى، ولكن كإيمان.. وهاجرت من بلدى.. أحمل إسلامى وأضرب فى الأرض.. ولكنى لن أعود إلى القاهرة.

لا إله إلا الله

إن إبراهيم لايزال يذكر أول سؤال حيره وتوجه به إلى أمه وهو لايزال طفلا فى الخامسة من عمره.. فقد كان يرى أباه يصلى صباح كل يوم قبل أن يخرج من البيت وكان يقف خلفه أحيانا ويقلده فى انحناءات الصلاة ولم يكن أبوه يدعوه إلى الصلاة معه ولكنه كان يفرح عندما يراه واقفا خلفه يقلده.. ويدأ أبوه يتلو صلاته بصوت مرتفع كأنه يريد من ابنه أن يتلوها وراءه ويحفظها منه بل إنه بلا تعمد وفى فترات متباعدة كان يداعبه خلالها، استطاع أن يلقنه سورة الفاتحة حتى حفظها. وفى يوم سأل إبراهيم أمه، كمجرد خاطر طرأ عليه دون تعمد:

– هل الرجال وحدهم هم الذين يصلون؟

وقالت أمه ضاحكة :

– الرجال والنساء كلهم يصلون ..

وقال فى دهشة :

– ولماذا لا تصلين أنت مع بابا ..

واحتضنته تقبله وهى تقول..

- إنى أصلى مع خالك لبيب :

وقال فى دهشة :

- لماذا تصلين مع خالى ولا تصلين مع بابا ..

وقالت وهى تمسح بيدها على شعر رأسه :

- هكذا تعودت.. وتعود بابا.. ونحن الاثنان نصلى لربنا.. وربنا واحد..

وقال وهو يضحك لها كعادة الأطفال عندما يطلبون شيئا :

- أريد أن أراك وأنت تصلين مع خالى..

قالت وهى تبعده عنها فى حنان كأنها لا تريد أن يطيل معها الكلام:

- إننا لا نصلى فى البيت..

وسأل بدهشة :

- أين تصليان؟

قالت فى رفق وهى تنظر إليه فى لوم كأنها تتمنى عليه أن يرحمها من هذه الأسئلة :

- فى الكنيسة..

ورنت الكلمة فى رأسه بطنين مرتفع.. إنها المرة الأولى التى يسمع فيها لفظ كنيسة. ترى ما هى الكنيسة؟ وقال ولهجته تحمل رنة إصرار:

- أريد أن أرى الكنيسة ..

وقالت أمه وهى تقوم مبتعدة عنه :

- حاضر..

وتركته وهو يسقط فى بحر الحيرة التى عاش فيها طوال حياته.. وقد انتظر يومها حتى عاد والده إلى البيت وانتهز فرصة اختلائه به وقال له وهو يلقى بنفسه على صدره ويقبله:

- بابا .. لماذا لا تصلى فى الكنيسة.

ورده أبوه وهو يضحك ويحتضنه :

- إنى أصلى فى البيت أو فى الجامع..

ورن لفظ الجامع فى رأسه بنفس الطنين الذى رن به لفظ الكنيسة وقال وقد اشتدت به الحيرة :

- ولكن ماما تصلى فى الكنيسة..

وسكت الأب برهة وهو ينظر فى عينى ابنه وعيناه تفيضان بالحنان ثم قال كأنه قرر أن ابنه وصل إلى السن التى يمكن أن يواجهه فيها بواقع لم يكن يعلمه بعد :

- إن ماما مسيحية وأنا مسلم..

وقال إبراهيم فى دهشة :

- وما الفرق؟

وقال الأب وهو يحتضن ابنه بابتسامة :

- بالنسبة لنا نحن الاثنين فلا فرق.. كلانا سعيد ومرتاح بإيمانه..

وقال وهو غارق فى الحيرة :

- وأنا.. هل أنا مسلم أم مسيحى.

وقال الأب فى عجلة :

- أنت مسلم لأن أباك مسلم..

وقال من خلال حيرته :

- هل لو كنت فتاة كنت أكون مسيحيا كماما..

وقال الأب بسرعة..

- لا.. الأبناء أولاد وبنات كما يحملون اسم الأب يحملون صفته كمسلم أو مسيحى..

وقال كأنه يهم بالبكاء :

- ولكنى أحبك وأحب ماما.. وسأكون مسلما مثلك ومسيحيا مثلها..

وقال الأب وهو يبتلع ريقه كأنه بدأ يعانى من ابنه:

- مستحيل فأنا أيضا أحب ماما وماما تحبنى وكل منا يعيش إيمانه دون أن يكون فيه ما يعكر حبه.. ولا تشغل نفسك بهذا الموضوع.. ودعها على الله..

وقال الصبى بسرعة كأنه يدافع عن نفسه :

- ماما قالت لى إن الله واحد..

وقال الأب وهو يبتعد عن ابنه :

- لا إله إلا الله.. وعندما تكبر ستعرف أكثر..

وتركه والده وهو يغوص أكثر فى بحر الحيرة وقد أخذ يلح على أمه حتى صحبته صباح يوم أحد إلى الكنيسة ووالده يعلم دون أن يعترض وكأنه أمر طبيعى أن تصحبه إلى الكنيسة. وقد جلس جانبها يستمع إلى التراتيل ويقلدها فى كل حركاتها ثم يتطلع إلى السقف وإلى الجدران بعينيه مأخوذا بالصور المعلقة وخرج دون أن يفهم شيئا وليس فيه ما ينبض بإحساسه إلا أنه بجانب أمه وقد عاد إلى البيت وبدأ يلح على أبيه قائلا :

- لقد رأيت أمى فى الكنيسة وأريد أن أراك فى الجامع..

وكان أبوه يرد عليه قائلا :

- أفضل أن تنتظر حتى تكبر وتذهب إلى الجامع وحدك وحتى تكون دوافعك من إيمانك لا من إيمانى..

ولكن إبراهيم الذى كانوا يدللونه باسم «برهم» أخذ يلح حتى صحبه معه فى صلاة الجمعة.. وأمه تعلم أنه صحبه إلى الجامع دون أن تعترض أو تعلق بكلمة وكأنه من الطبيعى أن يصحب أباه إلى الجامع وقد جلس بجانب أبيه يسمع القرآن ثم بدأ يلقده فى كل حركاته بعد أن أقيمت الصلاة ويردد مع إمام الجامع الفاتحة التى كان قد حفظها ويدير عينيه بين السقف والجدران وبين المصلين كأنه يحاول أن يكتشف شيئا يفهمه وإن كان كل ما اكتشفه وفهمه هو أن أباه كان فخورا به بين المصلين كأنه يتباهى بأنه أنجب مسلما..

وقد سأل أباه يومها وكان هذا هو كل ما خرج به من الصلاة فى الجامع:

- لماذا يجلس المصلون فى الكنائس على مقاعد ويجلسون فى الجوامع على الأرض..

وقال الأب مشفقا فى حنان :

- إنك لم تكن فى الجامع جالسا على الأرض ولكن على سجاد. وكل الأديان تركع لله ويكون ركوعها على الأرض، وإحساسك بالله يغلب إحساسك بكيف تكون وأنت متوجه إليه لأنه إحساس يرفعك إلى السماء.

ولم يستطع برهم أن يتخلص من الحيرة التى يعيش فيها وربما كان مما يعشش هذه الحيرة فى نفسه أن ليس حوله ما يخرجه منها أو يعينه عليها فأبوه وأمه عاشا كل حياتهما فى أقوى وأرقى حالات الحب لم يسمع منهما يوما خلافا أو نقاشا حول إسلامه أو مسيحيتها بل إن كلا منهما كان حريصا على رعاية إيمان الآخر، فأمه تطوى سجادة صلاة أبيه بيديها وتهتم بحفظها ورعايتها.. بل إنها اشترت له أكثر من سجادة أعجبتها وكانت تتباهى بها كأنها اشترت تحفة مقدسة. وكانت فى أيام رمضان تطبق على البيت كله تقاليد الصيام وهى نفسها كانت تصوم أياما ولا تأكل إلا مع العائلة ساعة الإفطار وإن كانت فى معظم الأيام لا تستطيع أن تحرم نفسها من فناجين القهوة ومن السجائر. وكل أعياد المسلمين يحتفل بها فى البيت حتى أن أمه كانت تشترى بنفسها الخروف وتشرف على ذبحه فى عيد

الأضحى وتشترى لزوجها وأولادها الملابس الجديدة فى العيد الصغير، وأبوه أيضا كان حريصا على رعاية مظاهر إيمان زوجته. إنه يتركها تتردد على الكنيسة كلما أرادت وهو فرح بإيمانها ويتركها تحتفظ بالصليب الصغير فوق صدرها ولا تخلى عنه أبدا، بل إنه سافر مرة إلى الخارج وعاد يحمل بين الهدايا صليبا ذهبيا موشى بالفصوص ليعلقه فوق صدر حبيبته متباهيا به.. وكل الأعياد المسيحية يحتفل بها البيت وعيد الميلاد.. وعيد القيامة المجيد.. وأحد السعف.. و.. و .. وإن كانت أمه نفسها تعفيهم من التمسك بكل أيام الصيام التى لا تقدم لهم فيها أى شىء تدب فيه الروح ولا يأكلون إلا ما أعد بالزيت لا بالسمن ولا بالزبد. إنها أيام طويلة تصل فى عيد القيامة إلى خمسة وخمسين يوما وفى عيد الميلاد إلى أربعين يوما فكان يكفى أن يصوموا يوما أو يومين فى كل عيد، كما أعفتهم مما يتبعه المغالون فى التدين بالصيام كل يوم أربعاء وكل يوم جمعة طوال السنة..

وكل منهما كان حريصا على زيارة عائلة الآخر خصوصا فى المناسبات، أبوه يذهب مع أمه لزيارة عائلتها وأمه تذهب مع أبيه لزيارة عائلته وكانا يصحبان معهما دائما إبراهيم. وقد أحس إبراهيم أنه رغم السنوات الطويلة التى مرت على زواج أبيه وأمه فإن أباه يبدو غريبا وهو وسط عائلة أمه متحفظاً مراعيا كل كلمة ينطق بها وأمه كذلك تبدو غريبة وسط عائلة أبيه.. هى أيضا متحفظة تفرط فى المجاملة.. أما هو وإخوته كانت العائلتان تفرطان فى الترحيب بهما وتدليلهما وغمرهما

بالهدايا، بل كانت كل عائلة تدعو أحيانا الأولاد دون دعوة الأب والأم.. كأن كلا منهما تسعى لتأخذ هؤلاء الأولاد من العائلة الأخرى..

وقد عرف فيما بعد أن العائلتين كانتا تعارضان بعنف زواج أبيه وأمه.. ولكن حبهما قاوم العائلتين حتى انتصر عليهما وتم زواجهما.. كانت أمه تهدد أحيانا بالهروب من العائلة وأحيانا تهدد بالانتحار.. وكان أبوه يتحدى كل عائلته ويردد فى هدوء.. سأتزوج مارى. وتركتهما العائلتان يتزوجان دون أى احتفال بهذا الزواج بل إن العائلتين قاطعتا حضور توقيع العقد الذى تم فى مكاتب الشهر العقارى، ولكن لم تمض سوى ثلاثة أو أربعة شهور حتى بدأت العائلتان تعترفان بهذا الزواج.. خصوصا بعد أن تأكدت كل عائلة من سعادة الابن والابنة وإن كان الاعتراف قد ظل حتى اليوم اعترافا من تحت الضرس وفى حدود الرسميات العائلية..

ويبتسم برهم بينه وبين نفسه وكأنه يسخر من نفسه.. لقد كان هو أول ما رزقهما الله ولعلهما أسمياه إبراهيم حرصا على أن يرضيا العائلتين.. عائلة أمه وعائلة أبيه.. فاسم إبراهيم يجمع بين المسيحية والإسلام.. فلم يسمياه جرجس مثلا كما لم يسمياه محمد أو أحمد..

وقد مرت بإبراهيم مراحل متعددة وهو يقاوم حيرته.. مرت مرحلة قرر فيها أنه مسلم.. ويجب أن يتفرغ بإيمانه وبشخصيته للإسلام وكان يتعمد أن يواظب على الصلاة ويصلى كل جمعة فى المسجد ويفكر فى أداء فريضة الحج.. ولم يكن فى ذلك

مجرد مؤمن بالإسلام ولكنه كان كأنه يتعمد أن يفرض شخصية اختارها على كل الناس وعلى أمه وعلى عائلتها، ولكنه بعد فترة بدأ حبه لأمه يشق قلبه كأنه يظلمها ويضطهدها ووجد نفسه وهو حريص على أداء كل شعائر الإسلام يذهب إلي الكنيسة وحده بل إنه صادق القسيس ولكنها صداقة كان لها طابع خاص، فقد كان يناقشه فى الدين لا لحاجته إلى الإيمان به ولكن فقط ليعلم بماذا تؤمن أمه.. وكان يترك القسيس ويذهب ليجلس مع الشيخ مصطفى رجل الأزهر الشريف وصديق والده ويحادثه طويلا وهو يريد أن يعلم ما يؤمن به أبوه.. ولكنه كان دائما أكثر صراحة وجرأة وهو يناقش أباه.. وقد قال له يوما :

- إن الإسلام يهدينا إلى أن الله واحد والمسيحية أيضا تهدى إلى أن الله واحد فلماذا لا أكون مسلما مسيحيا..

وقال له أبوه فى إشفاق:

- إن شهادة الإسلام لا تقتصر على أن الله واحد ولكنها تنص على أن محمدا هو رسوله. وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.. فإن لم تؤمن بأن محمدا صلى الله عليه وسلم هو وحده نبيك فأنت لست مسلما. وقال إبراهيم مجادلا وكأنه يجادل نفسه:

- ولكن القرآن الكريم يؤكد أن عيسى هو أيضا رسول الله.. ولو كان الله قد أرسل محمدا قبل موسى لكان الإنجيل قد نص أيضا على أن محمدا هو رسول الله.. كل من تلقى الوحى وحمل الرسالة ذكرهم القرآن.. وكلهم أنبياء.. فلماذا لا نجتمع كلنا حولهم كلهم..

وقال الأب وهو يزداد إشفاقا على ابنه:

- إن لله حكمة فى التطور بالبشرية وهدايتهم.. وبين المسلمين من كانوا مسيحيين وبين المسيحيين من كانوا يهودا وكانوا يتطورون وفقا لإرادة الله وكان النبى محمد هو آخر الأنبياء أى آخر مراحل التطور التى أرادها الله هداية للبشر..

وقال إبراهيم فى جزع:

- ولكن أمى لم تتطور إلى الإسلام..

وقال الأب فى هدوء.

- الله لا يكلف نفسا إلا وسعها.. ولم تتسع نفس أمك للتطور وعاشت نفسها هادئة مرتاحة مزدحمة بإيمانها بالمسيحية ولكنها لا ترفض حكمة الله.. فلم ترفض الإسلام كحكمة أرادها الله.. وتزوجت مسلما أنجبت مسلما.. وقال إبراهيم فى حدة:

- هل تزوجتك ماما لأنك مسلم:

وقال الأب فى هدوء:

- تزوجتنى لأن الله جمع بيننا لنتزوج.. الله الواحد الأحد..

وإبراهيم لا يتحرر أبدا من حيرته يسير فى الحياة وكأنه تائه ولا يكف عن مناقشة نفسه فى اختيار الطريق إلى أن انتقل إلى مرحلة أخرى.. مرحلة الطمأنينة.. إنه ليس فى حاجة إلى دين سواء كان الإسلام أو المسيحية كل ما يحتاج إليه هو العلم.. والحياة كلها علم.. والأديان نفسها ليست سوى قواميس للعلم.. وقد انتهى من دراسة علم الإسلام وعلم المسيحية.. فلينتقل

متفرغا للعلوم الأخرى ويدرس تكنولوجيا الحياة. إنه ليس مسلما ولا مسيحيا. إنه عالم يبحث فى أسرار الدنيا وخيل إليه أنه ارتاح..

ولكن المعاناة بدأت تعاوده، معاناة الحيرة.. ووجد نفسه يهرب من أمام أبيه وهو يراه يصلى الصباح.. ويهرب من أمام أمه وهو يراها متوجهة إلى الكنيسة يهرب مقاوما ما يعانيه. وكان لا يرتاح إلا عندما يجلس مع مادلين ابنة خاله لبيب.. إنه لا يحس بها كمسيحية ولكنه يحس بها كأنها تكمل وجوده سواء كان مسلما أم مسيحيا.. ويحس بها كأنها أمه. إنه يحبها بكل ما وسع له الحب. إن الله الواحد الأحد جمعهما وإذا جمع الله بين فتى وفتاة فهو سبحانه وتعالى يفرض عليهما إعلان الزواج..

ولم تكن معارضة العائلتين لهذا الزواج عنيفة كما عارضا زواج أمه من أبيه.. خصوصا وأن أباه وأمه رحبا بهما كزوجين. وقال إبراهيم وهو يتنهد ساخرا من تردده..

- يبدو أن بنات عائلة أمى يضعفن أم فتيان الإسلام.. ولعل العائلة كلها أن تعلن إسلامها حتى يستطيع فتياننا أيضا أن يتزوجوا مسلمات..

ولكن لا.. إن الذى يغير دينه فقط ليصل إلى فتاة يريد أن يتزوجها إنما يخدع وينصب على دينه وعلى الدين الذى انتقل إليه.. يخدع وينصب على الإسلام وعلى المسيحية.. وكثير من المسيحيين أعلنوا إسلامهم فقط ليتزوجوا من مسلمات.. فعاشوا

ضائعين لا يستطيعون أن يعيشوا الإسلام ولا يقبل منهم المسيحيون أن يكون استمرار إيمانهم فى الخفاء كأنهم يخفون عورة.. فعاشوا ولا يعترف لهم أحد بدين.. وتم زواج إبراهيم ومادلين..

ووجد إبراهيم نفسه فى صبيحة ليلة الزفاف يقوم ويفرش السجادة ويصلى صلاة الصبح.. وقد هدأت حيرته فهو مسلم ويتطلع مبتسما إلى مادلين وهى خارجة إلى الكنيسة.. لقد تحقق له ما حققه أبوه وأمه.. واجتمع الإسلام والمسيحية فى بيت واحد..

ولا إله إلا الله..

الحب فى رحاب الله ..

قبلت أن تتزوجه ولم يكن قد مر سوى يوم واحد على تقدمه إليها.. ولم تكن تعرفه أو تعرف شيئا عن حياته الخاصة أو حياته العائلية سوي ما ردده أمامها أفراد العائلة الصديقة التى جاءت به إليها.. كما إنه ليس وسيما حتى تغريها وسامته إلى حد اتخاذ هذا القرار السريع.. إنها تذكر يوم جاء إليها ورأته لأول مرة أنها جلست أمامه مبحلقة فى أنفه الكبير الضخم وعينيه الضيقتين اللتين لا تحملان أى لون كأنها تسائل نفسها هل يمكن أن تتحمل هذه الخلقة.. ولكنه كان متعجلا.. إما أن تقبله أو ترفضه.. مكتفية بأول نظرة وبما سمعته عنه.. فهو يعمل فى إحدى إمارات الخليج العربى.. وقد مضى عليه أكثر من عشر سنوات وهو لا يترك مقر عمله.. ولم يأت إلى مصر هذه المرة إلا بعد أن اطمأن إلى أنه أصبح يحقق دخلا وفيرا يجعله قادرا على بناء عائلة ثرية.. وقد جاء إلى مصر فقط ليتزوج ويصحب زوجته معه فورا إلى مقر عمله.. كأنه جاء إلى سوق الجوارى ليشترى جارية.. ولم يكن لديه الوقت الكافى حتى يستكمل تجاوبه مع أى جارية إلى أن يتخذها زوجة.. يكفيه التجاوب مع الملامح التى تعرض عليه.. وقد تجاوب مع ملامح عدلية..

وكان ما يسيطر على عقل عدلية وهى تفكر فى زواجها من هذا الرجل الذى تقدم إليها ويريدها سريعا قبل أن تستكمل معرفتها به هو أنه سيصحبها إلى بلد آخر.. وهى تريد أن تجرب الحياة فى بلد آخر.. لقد زهقت من روتين حياتها فى مصر.. رغم أنها لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها.. ثم إنها تسمع عن دول إمارات الخليج العربى التى سيصحبها إليها بأنها دول غنية كريمة سخية.. وتستطيع بما يجمعه زوجها من أموال أن تسافر كل عام إلى أوروبا لقضاء أيام الاجازات كما يقال عن كل العائلات المصرية التى يعمل رجالها هناك.. إنها تريد أن تتفرج على العالم.. وتشترى من كل دكاكين العالم.. وتتحرر من هذا الروتين الممل الذى تعيش فيه..

ورغم ذلك كانت تمر بها لحظات تكاد تقرر فيها رفض هذا الرجل.. ورفض الزواج به.. ربما لأنها أصلا لم تشعر بعد بحاجتها إلى الزواج.. وهو ليس أول رجل يتقدم إليها.. فقد تقدم إليها حتى الآن خمسة خطاب رفضتهم كلهم.. لأنها ليست فى حاجة إلى الزواج ولم يكن بينهم من يثير حاجتها إليه.. وهى واثقة من أن إقبال الخطاب عليها لن يتوقف فمعروف عنها أنها من عائلة محترمة.. وهى نفسها فتاة محترمة يشيد بها وبأخلاقها وتصرفاتها كل الناس.. ولم يؤخذ عليها أبدا أى تصرف يمكن أن يؤدى ولو إلى مجرد اللوم.. وقد كانت هى نفسها منذ وعت حريصة على هذا الاحترام بين الناس وداخل العائلة وفى المدرسة.. ولم يكن يطرأ على أحاسيسها أى خاطر

مما يطرأ على أحاسيس المراهقات.. كخاطر الحب.. لم تتعرض أبدا لما يسمونه الحب أو الغرام بأى شاب.. كما لم تحس أبدا بأنها محرومة من هذا النوع من الحب أو أنها فى حاجة إليه.. كل أحاسيسها كانت تفرغها لحياتها العائلية وللمدرسة التى تذهب إليها.. وقد اختارت أن تلتحق بمدرسة المعلمات.. إنها تريد لنفسها شخصية المعلمة.. الأستاذة.. شخصية «أبلة».. إنها شخصية تؤكد الأعتزاز بالنفس والقدرة على القيادة.. حتى لو كانت قيادة طلبة وطالبات.. وقد تخرجت فعلا من مدرسة المعلمات ولكنها لم تجد عملا لأنها لم تصل بعد إلى سن التعيين كمدرسة فى إحدى مدارس الأطفال.. وربما لأنها هى نفسها رغم أنها اختارت أن تكون مدرسة لم تكن فى منتهى الحماس لتزاول التدريس.. واستسلمت لأن تعيش بلاعمل.. وإن كانت أحيانا تتحمل مسئولية التدريس لإخوتها الصغار.. أو تلبى رجاء العائلات القريبة للتدريس لأطفالها.. دون أن تتعمد احتراف التدريس.. أى دون أن تقبل أى أجر على التدريس لأطفال الجيران.. إنها فقط تتطوع للتدريس دون أن تتقيد بهذا التطوع.. وتحتفظ لنفسها بحريتها الكاملة.. أى قد تلقى الدرس ثم تعتذر عن الدرس التالى.. ثم قد تعود إلى الدرس الذى يليه.. حتى قيل عنها إنها فتاة كسول.. ولكن عدلية نفسها لم تكن تتهم نفسها بالكسل رغم ما كانت تمر بها من فترات الملل.. إنها ليست كسولا ولكنها مستسلمة لكل ما تفرضه شخصيتها على حالها..

ولعل أبرز ما عرف عن عدلية هو تدينها العميق وحرصها على أداء جميع فروض الإسلام.. وكانت تدمن أداء الصلاة.. تصلى الفروض وتصلى ما تعرفه من تعاليم السنة.. وأحيانا تستمر فى الصلاة إلى أبعد مما تحدده الفروض وتوحى به السنة.. إنها تحس براحة كاملة وهى واقفة بين يدى الله.. تركع وتسجد له.. وربما كانت مع إيمانها العميق الصادق الذى يدفعها إلى الصلاة تحس بأن الصلاة هى الوسيلة الوحيدة التى يمكن أن تلجأ إليها لقطع الوقت والهروب من الزهق الذى يحيط بها.. وليس حراما أن يلجأ المخلوق إلى الله بالإسراف فى أداء الصلوات حتى يستعين به سُبحانه وتعالى ليحميه من الأخطاء التى يمكن أن يدفعه إليها الفراغ والزهق والملل..

وما عرف عن تدين عدلية وحرصها على أداء الفروض جعلها أكثر احتراما فى المجتمع وأشد جذبا لراغبى الزواج..

وهى تعلم أنها يوما ما يجب أن تتزوج.. ولكنها ليست متعجلة فى الوصول إلى هذا اليوم ولا تبحث حتى بخيالها عن الرجل الذى يمكن أن تتزوجه.. ولكنها فقط تضع بينها وبين نفسها شرطا للرجل الذى يمكن أن يجمعها به الزواج.. وهو أن تعرفه معرفة كاملة قبل أن يكتب العقد.. تعرف تفاصيل شخصيته وتفاصيل حاله.. حتى لا تلقى بنفسها فى المجهول.. وهذا الرجل الذى تقدم إليها أخيرا لا تعرفه ولا تعرف عنه إلا أنه ناجح فى عمله.. إنه المجهول.. ولكن هذا المجهول يقدم إليها حياة تتطلع إليها وتتمناها.. حياة توفر لها ما ينقذها من الملل والزهق والفراغ الذى تعانيه.. الحياة بعيدا عن مصر..

وبعيدا عن الروتين البارد الذى تعيشه العائلة.. ورغم لحظات الفريدة التى كانت تعانيها بين القبول أو الرفض.. فقد انتصر عليها هذا المجهول.. وأعلنت فى اليوم التالى قبول الزواج من عبدالحميد عبدالحى.. وهى تحس بموافقتها كأنها مقبلة على مغامرة بإلقاء نفسها فى المجهول.. وقد فرحت العائلة بموافقتها فرحة كبيرة رغم أنها أيضا لا تعرف عن عبدالحميد شيئا إلا ما سمعته من العائلة التى قدمته.. وهى عائلة محترمة صديقة لا يمكن أن تتقدم إلا بعريس محترم يستحق الزواج بابنتهم..

وتم الزواج بسرعة عجيبة وعبد الحميد يلبى كل مطالب العائلة دون نقاشٌ مهما غالت فى مطالبها.. وإن كان يبدو أحيانا كأنه بخيل.. فقد رفض أن يقيم حفل زفاف عاما فى أحد الفنادق وأصر على أن يكون حفلا عائليا داخل البيت.. بحجة ألا وقت لديه لتوجيه الدعوات.. وكان يحمل حلية الشبكة فى جيبه وقال إنه سبق أن اشتراها من البلد العربى الذى يقيم فيه.. لأنه لم يأت إلى القاهرة إلا بنية الزواج.. ورغم أنها تبدو حلية ثمينة سوار من الذهب الأبيض أو من البلاتين كما قال عبدالحميد.. تحمل فصوصا صغيرة من الماس لا يزيد أكبرها على ثلاثة قراريط.. إلا أنها لم تعجب عدلية وقد وعدها عبدالحميد أن يستبدل بها حلية أخرى بعد أن يصلا إلى الخليج.. فالسوق هناك أوسع وتعرض فيها حلى أرقى وأفخم مما يعرض فى مصر.. كثير من المطالب كان يؤجلها إلى أن يلبيها هناك.. بل إن العائلة طلبت منه فى رفق ولباقة أن يشترى أو يؤجر شقة فى القاهرة قبل أن يسافر.. لتكون حصن الأمان لمستقبل الزوجية..

ولم يرفض عبد الحميد ولكنه ترك لهم البحث عن هذه الشقة فإذا وجدوها أرسلوا إليه ليرسل إليهم قيمة التكاليف.. وعندما سألوه عن مدى ما يستطيع أن يدفعه.. قال فى غموض:

- ربنا يقدرنى..

ورفض أن يحدد قيمة الثمن الذى يمكن أن يتحمله..

وكل هذه المطالب كانت تناقش فى جلسات عائلية هادئة يسودها الحرص على تحقيق مشروع الزواج ولم يكن عبدالحميد يتعمد إطالة هذه الجلسات.. ينصرف فورا بعد أن ينتهى من دعوة إلى الغداء.. ولا يتأخر فى جلسة معهم عن الساعة التاسعة مساء.. ويصمم على الانصراف وكأنه على موعد.. وكانت الجلسات كلها كأنها جلسات عمل..لا تتخللها أى محاولات للتعبير عن أى تمهيد للعلاقة الزوجية.. فلم يحاول مرّة ولو الإمساك بيد عدلية والضغط عليها كعلامة من علامات لقاء عاطفى..

وفى اليوم العاشر بعد أن بدأ اللقاء كان قد تم كل شىء وصحب عدلية وهى زوجته إلى موطنه على شاطىء الخليج العربى..

مشروع لم يستغرق إعداده سوى عشرة أيام لتبدأ عدلية بعدها حياتها الزوجية..

* * *

وقد ذهلت عدلية و السيارة تحملها من المطار إلى بيت الزوجية.وتتلفت حولها تتطلع إلى ما تمر به.. إنها مدينة فخمة

رائعة.. لا يبدو فيها أى شىء يستكمل أى مظهر عربى.. إنها تحس كأنها دخلت مدينة أقيمت حديثا فى إحدى الولايات الأمريكية كالمدن التى تشاهد صورها فى الأفلام السينمائية أو على شاشة التليفزيون.. الشوارع واسعة أضعاف اتساع أى شارع فى مصر.. والأشجار الزاهية قائمة على الجانبين والأرصفة مظللة بالحشائش.. رغم أنها مدينة قائمة فى صحراء ولم تكن تتصور أنها ستجد فيها أى ورقة خضراء.. وانبهرت أكثر وهى تمر فى شارع الكورنيش الممتد على ساحل البحر.. كأنه كله جنة لا نهاية لها.. إن شارع كورنيش الإسكندرية يبدو أمامه كأنه حارة مهملة خانقة.. رغم أنه يسمى أيضا شارع «الكورنيش».. ثم أن المدينة كلها تبرق بالنظافة.. وأسفلت الشوارع يبرق ويستوى كأنه طرز لثوب جديد آخر موديل يلف جسد حسناء.. ولم تر فى أى شارع أى زحام كالزحام الذى يخنق شوارع مصر.. والناس تمشى كأنهم فراشات تطير فى الهواء ولا يصطدم أحدهم بالآخر.. وعمارات شاهقة كأنها ناطحات سحاب.. وفيلات رائعة داخل حدائق تبدو أشجارها وزهورها كأنها أنغام تعزف أروع ألحان الجمال.. وقد لمحت مسجدا أو مسجدين صغيرين متواضعين أقيما فى انزواء بين العمارات الضخمة.. كأن كل مسجد يختبىء فى عمارة دون أن يجرؤ على تحديها بالتفوق عليها فى الضخامة والروعة.. ولكن هذه المساجد هى التى ذكرتها بأنها فى مدينة عربية إسلامية..

وكانت عدلية - وهى بجانب عبدالحميد - لا تكف عن التعبير عن انبهارها.. وتلقى عليه بسؤال عن كل شبر من الأرض التى

تمر عليها.. وهو يجيبها فى برود وبلا مبالاة.. كأنه لا يحس معها بشىء مما يمران به يمكن أن يثير أى انبهار.. ولكنها بينها وبين نفسها اتخذت أول قرار وهو أن تقضى أيامها الأولى فى هذه المدينة وهى تطوف على كل شبر منها لتتفرج عليها..

ولكنها فوجئت منذ اليوم الأول بشخصية عبدالحميد التى لم تكن تعرفها.. فوجئت بالمجهول.. إنه لا يطيق الكلام.. ولا يتصور أن هناك موضوعا يمكن أن يثير أى كلام بينهما.. ولو لمجرد التسلية.. ولا يتحرك لسانه إلا إذا طرأ عليه موضوع إدارة البيت وما يتطلبه من نفقات..

وكان يخرج من البيت فى الساعة السابعة صباحا إلى عمله كموظف حكومى.. وكانت تعلم أن الحكومة تغلق أبوابها فى الساعة الواحدة والنصف.. ولكنه كان لا يعود إلا فى السادسة أو السابعة مساء.. ولم تكن تدرى أين يذهب ولكنها كانت تشم رائحة الخمر ينفثها فى وجهها وهى تستقبله.. لم يكن يبدو مخمورا فى تحركاته وتصرفاته.. إنه دائما بارد جامد رغم رائحة الخمر التى تهب عليها.. وكان بعد أن يعود لا يقول أكثر من كلمتين.. ثم يمد يده إلى دولاب مخصص لاستعماله الشخصى ويشد زجاجة من الخمر ويجلس صامتا ويعب كأسين أو ثلاثا.. وهو صامت دون أن يقاطعها أو يصدها عن أى كلمة تقولها.. وكأنه يتركها تحادث نفسها..

إن آخر ما كان يخطر على بالها قبل أن تتزوجه هو أنه سكير.. لعله كان يصر على عدم إطالة السهرات فى جلساته مع

أفراد العائلة حتى ينفرد بنفسه ويشرب الخمر.. ولو كانت قد عرفت أنه سكير لرفضت قطعا الزواج به.. إنه يتحدى الدين الإسلامى.. وهى مسلمة منتهى الإسلام.. ولكنها الآن لا تستطيع أن ترفضه.. فإن الخمر لا تطلق فيه شخصية تعتدى عليها.. ربما لو اعتدى أو تجرأ عليها يوما لهربت منه وانفصلت عنه.. ولكنه إلى الآن لم يخرج عن هذا الصمت الذى يكاد يخنقها.. وكانت تتركه يشرب الخمر وحده وتدخل حجرتها وتصلى لله ليرحمه من الخمر ويرحمها منه.. ولا تعود إليه فى جلسته إلا بعد أن تتأكد أنه أبعد الكأس وأعاد زجاجة الخمر إلى مكانها المختبىء.. إن إسلامها يحرم عليها أن تجلس فى أى جلسة خمر.. وتقدم إليه بعد ذلك وجبة العشاء.. إنه يأكل صامتا أيضا دون أن يبدى رأيا فيما يأكله ويتذوقه.. لا يعبر عن إعجابه بشىء ولا عن رفضه لشىء.. ويأكل كل شىء.. حتى بعد أن ينتهيا من تناول العشاء.. ويجمعهما الفراش يبدو فى بروده كأنه مقبل على تناول وجبة أخرى من الطعام.. ويتناولها فى صمت أيضا دون أن يحاول إحاطتها بأى إحساس عاطفى وهو يأكلها.. إنه فقط يبتلع ريقه ليساعده على الهضم..

وكان قد مضى يومان منذ وصولهما عندما قالت وهى تتعمد الرقة:

– أريدك أن تصحبنى لأطوف بالبلدة.. أريد أن اتفرج عليها كلها..

وقال فى لهجته الباردة :

– ليس فيها ما يستحق الفرجة.. لقد مضى على فيها عشر سنوات وأعرفها شبرا شبرا..

وقالت مقاطعة فى رقة :

– ولكنى جديدة عليها وأريد أن أتفرج عليها..

وقال فى هوء :

– تفرجى ..

وقالت فى دهشة :

– هل أخرج للفرجة عليها وحدى..

وقال بنفس الهدوء :

– إن جارتنا سلمى يمكن أن تطوف بك.. فاتفقى معها..

وكتمت سخطها رغم أن نيرانه تشتغل فى صدرها.. وكانت قد تعرفت بجارتهم سلمى وهى لبنانية وزوجها موظف آخر من موظفى الحكومة بعد أن جاء لزيارتهما يهنئانهما بالزواج.. ولم تكن قد استراحت لصداقة سلمى منذ عرفتها.. إن فى شخصيتها تفاوتا بعيدا عن شخصيتها.. الشخصية المصرية والشخصية اللبنانية.. ورغم ذلك تعمدت التقرب إليها حتى تصحبها فى الطواف بالمدينة.. ولكنها ضاقت بها سريعا بعد جولتين.. وأصبحت تخرج من البيت لتجوب شوارع المدينة وحدها.. وتزداد مع كل جولة انبهارا ودهشة.. لم تكن تعرف أن العالم أصبح ينتج كل هذه المنتجات.. كل شىء تجده.. وأشياء كانت

أبعد من خيالها وخصوصا فيما يمكن أن تريده المرأة.. إن هذه المدينة تستورد كل ما ينتجه العالم.. بل إنها لو سألت عن قطعة حجر مستوردة من القمر لوجدتها.. وكل شىء مباح فالنساء فى الشوارع سافرات.. والأذرع والسيقان مكشوفة.. بل إنها رأت فى حمامات السباحة المنتشرة فى كل فندق وكل ناد نساء يرتدين البكيني.. وصدورهن تكاد تكون عارية.. كما أن الخمور تقدم وتباع علنا.. وقد سخرت عندما رأت داخل كل فندق.. وكلها فنادق من أفخم ما تقدمه شركات الفنادق العالمية كهيلتون وشيراتون.. و.. و.. سخرت عندما رأت فى كل فندق مكانا ضيقا أقيم كأنه خيمة عربية مفروشة بالوسائد والسجاجيد على الطراز العربى وتقدم فيها القهوة والشيشة.. كأنها تريد أن تذكر زبائنها بأنهم فى بلد عربى..

وأصبحت تخرج كل يوم ولا تراعى وقتا محددا لتعود إلى البيت.. فزوجها عبدالحميد لا يعود إلا فى أوائل المساء.. بل إن طوافها شغلها حتى عن عادة التمادى فى الوقوف بين يدى الله والتمادى فى الصلاة.. ورغم انبهارها العنيف بكل ما تراه فى الدكاكين فلم تكن تشترى شيئا له قيمة.. فزوجها لم يشركها معه فى التصرف فى أمواله.. بل إنها إلى الآن لا تعرف كم يصل دخله.. وفى الوقت نفسه لا تستطيع أن تطالبه أو تفرض عليه مصروفا خارج ميزانية البيت التى حددها لها.. فهذه هى طبيعتها.. إنها لا تشحذ شيئا من زوجها.. ولكنها تجرأت يوما واستبدلت هذا السوار الذى قدمه لها كشبكة وتركته يفهم أنه لا يعجبها.. استبدلت به من الدكان الذى اشتراه منه خاتما ماسيا لا

يزيد ثمنا بل يقل عنه قليلا.. وقد أطلعت زوجها على ما استبدلته فلم يعترض بل لم يبد رأية.. المهم أن هذا الاستبدال لم يكلفه مزيدا من أمواله.. بل تركته يذهب إلى الدكان ليسترد فارق الثمن بين السوار والخاتم.. كأنها ترد إليه بعض ما دفعه.. ولو أن صاحب الدكان رفض أن يرد هذا الفارق نقدا وأعطاه به سلسلة مفاتيح ذهبية أخذها لنفسه..

ولكن بعد أسابيع بدأت عملية تضيق بهذا الطواف فى شوارع البلد.. وضعف انبهارها بما تراه.. بدأت تحس أنها لا تعيش فى بلد.. بل كأنها تعيش فى دكان كل ما فيه مستورد.. وهى نفسها فى هذا الدكان ليست أكثر من قطعة مستوردة.. غريبة عن كل ما حولها.. وحيدة.. إن أغلبية المقيمين فى هذا البلد من الأجانب المستوردين.. وكل مجموعة منهم أقامت لنفسها مجتمعا خاص متباعدا عن المجتمع الآخر.. فأهل البلد الأصليون لهم مجتمع خاص بهم.. وبجانبهم مجتمع لبنانى لا علاقة لهم به.. ومجتمع سورى.. ومجتمع فلسطينى.. ومجتمع كورى.. ومجتمع سودانى.. ومجتمع أمريكى.. و .. و .. والمصريون لهم مجتمعهم الخاص بهم.. وهو أضعف المجتمعات رغم كثرة عدد أفراده.. ولا يحقق أى وحدة مصرية أو شخصية مصرية.. إن كل فرد فى هذا المجتمع يتبرأ من الآخر ولا يراه إلا كأنه عدو يعتدى على رزقه.. وهو ما أصبحت تعرف به كل المجتمعات المصرية التى تقوم فى الغربة خارج مصر.. ربما لأن المصريين لم يتعودوا بعد على الغربة وعلى حياة الهجرة..

وقد حاولت بجرأة أن تقدم نفسها إلى كل هذه المجتمعات وتعيش فيها.. بل إن زوجها قبل عدة مرات دعوات جارتهم سلمى لقضاء ليال فى النادى اللبنانى.. ولكنها لم تستطع أن ترتاح وتتجاوب مع أصدقاء فى أى من هذه المجتمعات بما فيها المجتمع المصرى.. ووجدت نفسها تنعزل عن كل هذه المدينة داخل بيتها.. بعيدة عن الناس وبعيدة نفسيا عن زوجها.. ولجأت فى مقاومة وحدتها إلى الله وقطع الوقت والتغلب على الملل بالوقوف بين يديه.. لتصلى..

وكان كل ما تنتظره أن يبدأ زوجها فى إجازته السنوية وتسافر معه إلى أوروبا.. إنها مشتاقة إلى الفرجة على مدن أوروبا كما كانت مشتاقة إلى الفرجة على هذه المدينة التى أصبحت تقيم فيها.. وقد سألته وهى حريصة على الرقة :

- متى تقوم بالاجازة؟

وبهتت وهو يرد عليها قائلا:

- إنى أرفض الإجازات.. وأستعيض عنها بالبدل النقدى الذى أحصل عليه نظير التنازل عنها..

وقالت محتجة :

- ولكنى فى انتظار الإجازة حتى نسافر إلى أوروبا.. أريد أن أتفرج علي أوربا..

وقال فى برود :

- إن كل ما يمكن أن تريه فى أوروبا تجدينه هنا..

وقالت كأنها تتحايل عليه :

– على الأقل نهرب من لهيب الصيف هنا..

وقال بنفس البرود :

– إن كل غرفة فى بيتنا بها مكيف للهواء.. وكل بناء فى البلد وكل سيارة تجرى فى شوارعها تحمل مكيفا للهواء.. إن مكيف الهواء هنا من لوازم الحياة كحنفيات المياه.. إننا لسنا فى مصر ليخنقنا البرد أو يمزقنا الحر.. إن الجو الذى تريدين أن تعيشى فيه لا يكلفك لتجديه سوى الضغط على زرار مكيف الهواء..

وانتهى النقاش بأن استسلمت.. ولعلها لم تستسلم ولكنها كانت تحس بأنها تخوض تجربة مع المجهول.. ولم تنته هذه التجربة بعد.. بل إن هذه التجربة لم تصل بها إلى الاقتناع بأن تنجب أى مولود من هذا الزوج الذى تعيش معه وهى لا تعرفه.. تعيش مع المجهول.. وكانت حريصة على تناول حبوب منع الحمل بانتظام دون أن يدرى زوجها.. وهو أحيانا يعبر فى كلمة عابرة عن أمنيته فى أن يرزقهما الله بمولود.. ولكنه لم يكن متعجلا.. ربما كان متفرغا ليجمع أموالا أكثر حتى يبدأ التفكير فى إنجاب وارث.. وهى نفسها كانت تمر بها حالات تشتاق فيها إلى أن تنجب.. أن تكون أما.. إن الأولاد يمكن أن يرحموها من هذا الزهق و الملل والفراغ الذى تعانيه.. ولكنها لم تقتنع بعد بأن تنجب وتعيش بأولادها مع هذا المجهول.. وتكتفى بأن تعيش ساعات أطول بين يدى الله.. إلى أن تذكرت أنها خريجة

مدرسة المعلمات.. لماذا لا تحاول أن تعمل مدرسة فى إحدى مدارس الأطفال المنتشرة فى هذه المدينة.. إنها تحب كل الأطفال حتى ولو لم يكونوا أبناءها.. وبدأت تحاول العمل بمدرسة.. ولم يعترض زوجها.. إنها ستقبض راتبا محترما يزيد من دخل العائلة.. بل إنه هو نفسه ساهم فى محاولة تعيينها بالمدرسة.. إلى أن عينت..

وخفت بعض ساعات الملل والزهق والفراغ التى تعانيها.. إنها تخرج من البيت مع زوجها فى الساعة السابعة صباحا لتذهب إلى المدرسة.. ولكن المدرسة تنتهى فى الساعة الثانية عشرة ظهرا من كل يوم.. فتعود إلى البيت وحدها.. وتحاول وهى وحدها أن تشغل نفسها بإعداد ومراجعة أعمال التلاميذ.. ثم لا يلبث الملل والزهق أن يزحفا عليها فتجرى للوقوف بين يدى الله.. تصلى.. إنها لا تطيق هذا الهدوء الصامت الذى يسيطر على بيتها.. بل يسيطر على البلدة كلها.. رغم أنه هدوء أمن مطمئن.. فتهرب من الدنيا كلها إلى السماء.. إلى الله..

* * *

وكان بجانب المدرسة مسجد من هذه المساجد الضيقة المتواضعة التى تختفى وراء العمارات كأنها تستحى من إعلان الإسلام.. ومرت كثيراً من أمام هذا الجامع إلى أن وجدت نفسها مرة تدخل إليه.. كأن دافعا مفاجئا غريبا دفعها إليه لتصلى فيه.. والجمع بين النساء والرجال مباح فى كل المساجد هناك.

ولم تكن تعلم أن الله أعد لها داخل هذا المسجد الطريق إلى حياة أخرى..

ودخلت الجامع وهى مترددة ترتعش سيقانها فى خطواتها.. إنها لم تتعود دخول المساجد فى مصر إلا فى صحبة عائلية خلال مناسبات زيارة الحسين أو السيدة زينب.. وهى المرة الأولى التى تدخل جامعا وحدها.. ولا تدرى لماذا دخلت.. لعلها كعادتها تلقى بنفسها فى المجهول.. ولكنه الذى المجهول تستغيث به.. إنها تلقى بنفسها بين يدى الله..

والجامع خال من المصلين بعد أن كانت قد أنتهت صلاة الظهر.. ولكنها لمحت بجانب المنبر شيخا جليلا جالسا يرتل القرآن لكريم بصوت خفيض هادئ.. لعله إمام الجامع.. إنها أول مرة تراه فيها وعرفت اسمه فيما بعد.. إنه الشيخ جاسم.. لا شك أن اسمه هو قاسم.. ولكنهم هنا ينطقون ويكتبون حرف القاف بحرف الجيم.. والشيخ جاسم يبتسم لها مرحبا بمجرد أن رآها.. ابتسامة هادئة مرحة لا تعكس علي عينه أى معنى مرفوض.. وقد ردت ابتسامته بابتسامة خجلة ضائعة..

وكانت قبل أن تدخل قد خلعت حذائها ولفت رأسها بالوشاح الذى كانت تلف به عنقها.. وهى مطمئنة أنها ليست فى حاجة إلى وضوء آخر..فوقفت فورا أمام القبلة وأدت صلاة ركعتين تحية للجامع.. ثم جلست فترة على أرض الجامع وهى تحس براحة تزحف عليها لم تحس بها من قبل.. كل أعصابها وأحاسيسها النفسية ترتاح راحة لم تشعر بها من قبل.. ولكنها فى هذه الفترة انطلقت عيناها فيما حولها فرأت رجلا آخر جالسا فى ركن من الجامع.. إنها تعرفه.. إنه مصرى اسمه المهندس مرتضى رفعت.. وهى تعرفه وتسمع عنه من بعيد ومما يرده

المجتمع المصرى فى البلد من كلام.. ولكن لم يجمعهما من قبل أى لقاء.. وابتعدت بعينها عنه سريعا وهى تستغفر الله لأنها تطلعت إلى رجل غريب.. وانتفضت واقفة وبدأت تؤدى ركعات صلاة الظهر.. وبعد أن أدتها جمعت ساقيها تحتها مستسلمة لمتعة الراحة التى تشملها داخل الجامع.. ولكنها وجدت نفسها تلفت بعينيها إلى حيث يجلس مرتضى.. وفوجئت بعينيها تلتقيان بعينيه.. فهربت بعينيها فورا من عينيه ونطرت نفسها واقفة خارجة من الجامع.. وإن كانت قد حيت الشيخ جاسم فى خروجها...

ـ السلام عليكم..

ورد عليها وابتسامته تتسع نابضة بفرحته:

ـ بارك الله فيك يا ابنتى..

وعادت إلى بيتها وقضت كل ساعات وحدتها وكأنها لا تزال فى الجامع وتطرأ على خيالها صورة الشيخ جاسم وهو جالس أمامها.. ثم تبرز فى خيالها صورة مرتضى وهو جالس على ناحية منها وتقاوم حتى خيالها فى تصوره..

وليس من عادتها أن تستسلم لتصور أى رجل غريب.. حتى وهى تحاول أن تركز نفسها بين كتب وكراسات التلاميذ لا تستطيع أن تقاوم خيالها وهو يبتعد بها إلى الجامع.

لم ترو لزوجها عندما عاد حكاية إقدامها على أداء الصلاة فى الجامع.. فهو لا يعود إلا ورائحة الخمر تفوح منه وحديث الجامع لا يعرض على مخمور..

وفى اليوم التالى ودون أن تفكر أو تتعمد وجدت نفسها تخرج من المدرسة بعد إنتهاء الدراسة ووتجه إلى الجامع.. كأنها كانت طول حياتها تتردد عليه.. وألقت على الشيخ جاسم التحية من بعيد.. ووقفت تؤدى صلاة الظهر.. ثم طوت ساقيها تحتها وجلست تتمتع بالراحة النفسية التى يوفرها لها الله وهى فى بيت من بيوت الإيمان به.. وإذا بالشيخ جاسم يقوم ويقترب منها ويجلس بجانبها.. ويبدأ فى التحدث إليها.. ولم يسألها من تكون.. ولا عن حالها.. ولكنه لا يتحدث إلا عن عبادة الله.. وما يعنيه الإسلام.. وهى تتفتح أكثر وأكثر لحديثه.. إنها تفاجأ بكثير من التعاليم والتفسيرات التى لم تكن تعرفها.. بل بكثير مما يتعارض مع ما تعرفه وما تفهمه.. وقد بدأت تناقشه.. ولكنه نقاش هادئ يحيط الجانبين بإيمان يجمعهما معا..

إلى أن فوجئت بصوت يدخل الجامع ويلقى من بعيد بتحية السلام.. والفتت.. إنه مرتضى.. وسحبت التفاتتها بسرعة وهى تستغفر الله.. وقد انزوى مرتضى بعيدا عنها وعن الشيخ جاسم يؤدى الصلاة.. وهى هائمة فى صورته وتداهمها تساؤلات عنه.. حتى دهمها تساؤل تحركه طبيعتها كامرأة.. هل رآها بالأمس فجاء اليوم خصيصا ليستعيد رؤيتها.. ولكنها علمت فيما بعد أن من عادته أن ينتهى من عمله ويأتى إلى الجامع ليؤدى صلاة الظهر.. نفس التعود الذى بدأت تكتسبه..

وظلت بجانب الشيخ جاسم تستمع إليه وترد عليه إلى أن بعد عنها ليصعد المئذنة ويدعو إلى صلاة العصر من خلال

الميكرفون.. وقامت وأدت صلاة العصر وخرجت من الجامع متعمدة ألا تلتفت إلى مرتضى حتى لا تلتقى بعينيه..

وعادت إلى وحدتها فى بيتها وذكريات ساعاتها فى الجامع تشغل كل خيالها.. وإن كانت صورة مرتضى قد بدأت تشغل مسارات أوسع من هذا الخيال..

وذهبت فى اليوم الثالث.. والجامع كما هو خال دائما.. وأدت صلاة الظهر قريبة من الشيخ جاسم.. ثم سمعت مرتضى يدخل وهو يطن التحية.. وإذا بالشيخ جاسم يقول لها:

- إنه مهندس من مصر أيضا.. وهو كامل الإيمان.. وأعتز بصداقته واختياره للجامع الذى يجمعه بى.. بل أحس كأنى أتبرك به كما يتبرك هو بهذا الجامع..

ولم ترد عدلية بكلمة.. ولكن الشيخ انتظر حتى انتهى مرتضى من صلاة الظهر وناداه إلى الانضمام إليهما ليشاركهما بحوثهما فى الدين.. كأنه يناديه إلى الاستماع إلى خطاب يلقيه.. دعوة ليس فيها ما يخدش طهارة الجلسة.. وجاء مرتضى وجلس بجانب الشيخ جاسم بعيدا عن عدلية دون أن يصافح كأنه يخاف أن يخدش طهارته بلمس امرأة.. وكان هذا هو أول لقاء يجمعهما.. وعدلية تستجمع كل قواها خلال الحديث الذى يدور بينهم حتى تقاوم رجفات عينيها كلما نظرت إليه..

وحانت صلاة العصر وأوصاهما الشيخ جاسم بانتظاره إلى أن يؤذن.. وجلسا وحدهما لا يتبادلان أى كلمة كأن ليس من حق أحدهما أن ينفرد بالآخر ولو فى حديث.. إلى أن عاد إليهما

الشيخ جاسم.. وأم بهما صلاة العصر.. هو فى المقدمة ومن خلفه مرتضى وعديلة واقفة خلف مرتضى..

وتركت عديلة الجامع مباشرة بعد أداء الصلاة.. وهى تحس بإقدامها على هذا المجهول الجديد.. إن مرتضى يشغل بالها.. لا تدرى لماذا.. ولكنها يجب أن تبلغ زوجها بحكاية أدائها الصلاة فى الجامع فقد تعرفت فيه إلى رجل غريب وليس من حقها أن تلتقى بغريب دون استئذان زوجها.. وانتهزت ساعة الصباح وزوجها يحملها فى سيارته إلى المدرسة.. وهى ساعة تكون رائحة الخمر التى تفوح منه خامدة.. وقالت له:

- إنى بدأت أتعود بعد انتهاء المدرسة أن أؤدى صلاة الظهر فى الجامع..

ورد عليها كأنه يشفق عليها من جنونها قائلا:

- ما دمت تستطيعين الذهاب إلى الجامع بعد انتهاء عمل المدرسة، فلماذا لا تذهبين إلى عمل آخر يوفر لك دخلا آخر.. أى تبحثين عن عمل يشغلك بعد الظهر.. هذا ممكن فى هذا البلد..

ولوت عدلية شفتيها سخطا.. إنه لا يقدر أبدا تدينها وهو نفسه لا علاقة له بأى دين.. سواء الإسلام أو غيره من الأديان.. وقالت فى حدة:

- لا أريد ولن أبحث عن أى عمل آخر.. ولا عن أى درهم أكثر..

ولم تتم حديثها عن الجامع الذى تصلى فيه، ولم تبلغه أنها تعرفت فيه بمرتضى رفعت..

ويومها أطالت جلستها فى الجامع إلى ما بعد صلاة العصر.. ويوما بعد يوم يشتد ارتباطها بالصلاة فى الجامع حتى بدأت تعترف أنها لم تعد مرتبطة بمجرد الصلاة.. إنها تحس بدوافعها لرؤية مرتضى.. كأنها أيضا أصبحت مرتبطة به.. رغم أن كل ما بينهما لا يتجاوز هذه الجلسة المتجردة إلا من ذكر الله.. كأنها جلسة فى السماء.. ولا تشوبها لمسة بينها وبينه.. حتى إنهما لا يتصافحان حتى تلمس يدها يده.. وإن كانت عيونهما بدأت تتعود على الالتقاء فى نظرات بدأت تزداد تعبيرا عن خوالج قلب كل منهما.. ما هذا؟ لعله الحب الذى يجمع بين رجال ونساء قد بدأ يجمعهما.. وهى لم تعترف أبداً بهذا الحب.. ولكنها بدأت تحس كأنها تقاومه.. تريد أن تهرب من الحب قبل أن يأسرها.. تريد أن تهرب من مرتضى.. وقالت لزوجها فى حدة:

- أريد أن أسافر إلى مصر.

وقال فى برود:

- إن مصر بلدنا وملك لنا ونستطيع أن نعود إليها كلما أردنا.. وأنا لا أريد بعد..

- وقالت كأنها تستجدى:

- لقد مضى عامان وأنا بعيدة عن أهلى.. وأصبحت أعانى الشوق إليهم.. أريد أن أراهم وأطمئن عليهم..

وقال بلا مبالاة:

ـ سافرى إليهم وحدك..

وقالت وهى تكاد تصيح:

ـ أريد أن يرانى أهلى بعد أن أصبحت زوجة.. أى يرونى وحياتى تجمعنى بزوج.. ويجب أن تكون معى.. لعل الحياة بين الأهل تجمع بينى وبينك أكثر.. وإنى أخشى لو سافرت إلى مصر وحدى ألا أعود..

وقال عبد الحميد فى هدوء مفتعل:

ـ اسمعى يا عدلية.. إننا فى هذا البلد لتحقيق هدف واحد وهو أن نجمع الأموال ونحقق الثراء إلى أن نصل إلى ما نعتبره كافيا.. وإلى الآن لم أجمع ما يقنعنى بالاكتفاء.. والحياة هنا رغم أنها توفر كل ما نحتاج إليه بل ونطمع فيه إلا أنها ليست سهلة.. فأنا مثلك أعانى الشوق إلى بلدى وإلى عائلتى وأصدقائى.. بل وإلى زحام مصر وصخب الحياة فيها.. حتى إنى أشعر كما تشعرين بأنى لو عدت إلى مصر فلن أتركها أبدا.. ولذلك فإنى لن أعود إليها أبدا إلا إذا قررت أن أبقى فيها.. أى بعد أن أكون قد حققت ما أريده فى هذا البلد، والذى لم أحققه كله بعد..

وسكتت عدلية لحظة كأنها تحاول أن تتخذ قرارا، إلى أن صاحت:

ـ مادمت لن تسافر معى فلن أسافر وحدى..ولعلها لم تتخذ

هذا القرار لا اقتناعها بما يقوله زوجها.. ولكن لأنها وجدت حجة لعدولها عن مقاومة الحب.. والاستسلام للقائها مع مرتضى..

وهى كل يوم فى لقاء معه داخل الجامع.. وقد بدأ الحديث بينهما يتسع ليتحدث كل منهما عن حاله وعن حياته الخاصة.. وكان الشيخ جاسم يتركهما فترات ليشرف على شئون الجامع فيتسع الحديث بينهما وحدهما أكثر ويتصارحان أكثر.. وقد قال لها مرتضى إنه تزوج منذ خمس سنوات.. ذهب إلى القاهرة وانتقاها من سوق الزوجات دون أن يعرف عنها إلا ملامحها.. وعاد بها إلى هنا لتقيم معه، وكلما عرفها أكثر تباعد عنها أكثر،.. وهى عاجزة عن الأنجاب حتى يجمعهما ولو مجرد الارتباط بمولود.. إن حاله هو نفس حالها. وتروى له نفس القصة. إنها تزوجت من المجهول جاء وانتقاها من سوق الزوجات.. وكل ما تكشف لها عن هذا المجهول لم يحقق لها أى حلم من أحلامها.. وقد تعمدت ألا تنجب منه إلا بعد أن تجد فيه ما يطمئنها على مستقبلها.. وهى إلى الآن لم تجد فيه ما يطمئنها.. إنها تعيش معه كأنها محكوم عليها حكما شرعيا بالمعاناة..

***

وقال لها متنهدا وعيناه تحتضنان عينيها:

ـ إنى أدعو الله فى كل صلاة ألا يحرم أحدنا من الآخر..

وقالت وكأنها تذرف دموع اليأس:

ـ إن الله سبحانه وتعالى قد تركنا للقدر دون أن يمن على أحدنا بالآخر شرعا..قد تسافر.. وقد أسافر أنا.. ونحرم من أن

أراك وتراني.. نحرم من جلستنا معا بين يدى الله..

وقال فى إصرار:

ـ لنتزوج..

وصاحت وكأنها قد صدمتها دهشة:

ـ كيف.. إنك زوج. وأنا زوجة..

وقال متنهدا وهو يرفع عينيه كأنه يخاطب الله:

ـ لابد أن هناك ما يحقق جمعنا.. إن الله فرض الشريعة ولكنه لم يفرض الشقاء على خلقه.. وفرض الفضيلة مع ما يحمى المخلوق من دفعه إلى الخطيئة.

ومضت أيام وهما يبحثان عن الطريق الذى يجمعهما شرعا.. وقد أشركا الشيخ جاسم فى بحثهما.. والشيخ جاسم يثق فى إيمان وفضيلة كليهما.. حتى تحمس معهما لإنقاذهما قبل أن يصلا إلى الخطيئة.. وقال لمرتضى إن الشرع يتيح له أن يجمع بين زوجته وزوجة ثانية.. خصوصا وأنها لا تنجب..

وقاطعه مرتضى قائلا فى تأكيد:

ـ إنى لا أريد أن أجمع بين عدلية وزوجتى.. لم أعد أطيق الحياة إلا مع عدلية وحدها..

وقال الشيخ جاسم فى هدوء:

ـ إن الله منحك حق الإرادة ولكنه لم يمنح هذا الحق لعدلية.. إنها لا تستطيع أن تتزوج وهى زوجة.. أى أن تعدد

المرأة الأزواج كما يعدد الرجل الزوجات.. وله فى ذلك حكمة..

وصاح مرتضى:

ـ إن الإسلام يحمى الخلق من الخطيئة، فكيف يحمينا منها وقد أصبحت الشياطين فى معركة مع الملائكة فى داخلنا..

وطالت الأحاديث وتشتت الأفكار.. إلى أن دخلت عدلية الجامع فى موعدها فوجدت مرتضى على غير عادته قد سبقها إليه.. وألقت عليه بتحية الإسلام ثم أدت صلاة ركعتين تحية للجامع ثم أربع ركعات فرض صلاة الظهر.. ثم طوت ساقيها تحتها وجلست بجانبه تسأله

ـ ماذا أتى بك مبكرا قبل إنتهاء موعد عملك على غير عادتك؟..

وقال مرتضى فى هدوء:

ـ لقد كان الشيخ جاسم ينهى لى أوراق الطلاق.. لقد طلقت زوجتى..

وقالت فى هلع:

ـ وما ذنبها؟..

وقال مرتضى ولم تكن تبدو عليه فرحة ولكن تبدو عليه الراحة:

ـ لقد حققت لها أمنية.. فهى أيضا كانت تريد الطلاق وإن لم تطالب به.. لقد كنا نعيش كاثنين من المساجين فى زانزنة

واحدة.. وهى لا تزال صغيرة.. ولعلها كانت تعيش على حلم أن تكون زوجة لرجل آخر يحبها ويسعدها.. وقد فتحت لها مجال تحقيق هذا الحلم رأفة بها.. وقبل أن تشيخ فى هذه الزنزانة وتفقد حتى مجرد الحلم.. بقى أن نحقق الأصعب ونكتسب حياتنا معا.. أن يرأف بنا الله كما دفعنى إلى الرأفة بزوجتى وتطليقها..

ولأول مرة تمد عدلية يدها وتربت على يد مرتضى كأنها تواسيه.. وقد عادت يومها إلى بيتها وفكرها مزدحم بالقرارات والتخطيطات وهى تائهة حائرة.. إلى أن عاد زوجها بعد الساعة السادسة مساء كعادته.. ولم تراع حرصها على ألا تجلس معه وتحادثه وهو ينفث رائحة الخمر حوله..

وقالت له منطلقة فى إصرار:

ـ عبد الحميد.. لم أعد أطيق.. طلقنى..

وقال عبد الحميد فى برود كأنه لم يفاجأ:

ـ لماذا.. هل تريدين العودة إلى القاهرة؟

وقالت فى حزم:

ـ لا.. إنى مرتبطة بعملى فى المدرسة هنا.. والطلاق لا يفرض على أحدنا أين يكون وأين يعيش..

وقال قاطعا

ـ إن كل إجراء يقوم على أسباب.. ولا أستطيع أن أقدم على الطلاق إلا إذا اقتنعت بأسبابه.. فما هى هذه الأسباب؟..

وصاحت عدلية:

ـ يكفى أنى لم أعد أطيق.. ولا شك أنك تشعر بأنى لم أعد أطيق الحياة معك..

وقال عبد الحميد ساخرا:

ـ كل خلق الله يعيشون الحياة وهم يعانون ما لا يطيقون..

وأصر على عدم الاستجابة لطلبها الطلاق.. وحتى لو عادت إلى القاهرة فلن يطلقها إلا إذا اختار هو لا هى الطلاق..

ومن ليلتها بدأت عدلية تنام فى غرفة أخرى من غرف البيت البعيدة عنه.. كأنها قررت أن مجرد أن يلمسها أصبح يعتبر حراما.. ثم بعد يومين جمعت حاجاتها وانتقلت إلى الإقامة فى البيت المخصص لمدرسات المدرسة.. وعبد الحميد يراعى ألا تثير تصرفاتها كلام المجتمع وخصوصا المجتمع المصرى فى هذا البلد.. ويطلق تفسيرات لانتقالها إلى الإقامة فى بيت المدرسات بأنها تريد فترة تتفرغ خلالها لعملها.. وهو مصر على عدم الطلاق..

وكانت عدلية تذهب كل يوم إلى الجامع وتبكى بين يدى مرتضى والشيخ جاسم.. وهم ثلاثتهم يريدون أن يتم الطلاق.. إلى أن استطاع الشيخ جاسم أن يحدد موعد لقاء مع عبد الحميد نفسه.. وذهب إليه وبدأ يقول له فى رفق:

ـ إن السيدة عدلية مؤمنة تعيش الإسلام وتؤدى الفروض.. وأنا أعتز وأفخر بها وأدعو الله أن يرفع كل المسلمات إلى إيمان

عدلية.. وقد جاءتنى ترجونى التوسط لديك لإقناعك بأن تحقق لها أبغض الحلال عند الله.. وهو الطلاق.. وأقنعتنى فعلا بدوافعها إلى المطالبة بهذا الحلال البغيض.. إن التباعد بينكما واسع.. وأوسع ما فيه أنها تقيم حياتها على الإيمان وأداء الفروض وأنت لا تعبر عن إيمانك ولا تؤدى فرضا.. لقد قلت لى إنها أصبحت تعيش كأنها أسيرة لكافر..

وسكت الشيخ جاسم يلتقط أنفاسه، ثم قال ولهجته تحمل معنى التهديد:

ـ ثم إنك كما قالت لى تشرب الخمر.. ولعن الله من جالس الخمر.. وعدلية تكاد تشعر بأنها أصبحت ملعونه من الله لأنها تجالسك وتعيش معك.. والحمد لله أن مجتمع المسلمين فى هذا البلد لا يزال يتغاضى عن مسلم من بينهم شارب الخمر.. وإلا ثاروا عليه وطردوه من بلدتهم..

وكأنه يهدده بالثورة عليه وطرده من البلد.. والشيخ جاسم له فى تقدير الزوج مركز خاص.. فهو من أهل البلد وله مكانة خاصة بين الحكام.. ولذلك يخشاه.. وقد تلقى كلامه فى استسلام كأنه لا يستطيع إلا أن يستجيب له.. ولكنه قال:

ـ لقد تزوجت عدلية كصفقة من صفقات الحياة.. وهى صفقة كلفتنى غاليا: المهر.. والشبكة.. والهدايا.. والإعالة.. و.. و... ولكن هذه الصفقة لم تحقق لى أى ربح.. ولا حتى الربح النفسى بإسعادى حتى أعمل أكثر وأنتج أكثر.. وأنا متمسك بعدلية حتى تحقق لى ما يعوضنى عن التكاليف التى أنفقتها عليها..

وفهم الشيخ جاسم وقال فى هدوء:

ـ لقد أبلغتنى عدلية أن ترد إليك كل ما أنفقته لإقامة حياة معها.. وتتركها لحياتها وحدها..

ولم تكن عدلية قد أبلغته بشىء من ذلك.. لقد انتابها نوبة من السخط والقرف عندما أبلغها الشيخ جاسم بما يريده عبد الحميد ليطلقها.. وقد جمعت كل ما تملكه وكل ما ادخرته بما فيه حلية الشبكة والحلى التى كانت قد أهديت إليها.. وتنازلت عن كل ما لها فى البيت.. وأضاف عليه مرتضى من أمواله الخاصة.. كما اضطر الشيخ جاسم نفسه أن يضيف إلى أن جمعوا ما يكتفى به عبد الحميد لتوقيع ورقة الطلاق..

ولم تمر الشهور الثلاثة التى تفرض على الزوجة بعد أن يتم طلاقها حتى تتزوج من آخر.. بل اختصرها الشيخ جاسم وحسبها منذ أن هجرت الزوجة زوجها لا منذ وقعت ورقة الطلاق.. وبعد شهر واحد كان يعقد الزواج بين عدلية ومرتضى.. وأمها بعد الانتهاء من كتابة العقد فى صلاة ركعتين شكرا لله تعالى.. واستأذنت عدلية فى أن تستمر وحدها فى صلاة أربع ركعات زيادة فى شكر الله.. ثم قامت تكتب خطابا طويلا إلى أهلها تروى قصة طلاقها من عبد الحميد وزواجها من مرتضى.. كأن ليس من حقهم إلا أن يعرفوا دون حاجة إلى أن يتدخلوا ولو بآرائهم..

وكان المجتمع المصرى فى هذا البلد البعيد قد تلقى خبر طلاق مرتضى من زوجته الأولى فى بساطة.. كما تلقى خبر

طلاق عدلية من عبد الحميد فى بساطة أيضا.. فإن الطلاق يتم بين المهاجرين فى بساطة بساطة ظروف الغربة.. والوحدة بعيدا عن الأهل.. والملل والزهق من ركود المجتمع الذى يجمعهما..

ولكن عندما تم زواج عدلية بمرتضى ثارت ضجة فى كل المجتمعات.. بعضها ثورات عنيفة.. وبعضها ضجة متندرة بحكاية من حكايات الحب..

لقد جمعهما الحب داخل جامع.. والجوامع لا ينطلق فيها إلا حب الله.. فكيف يحس أى رجل بأى امرأة وهو داخل الجامع..

ثم إن الشيخ جاسم بارك هذا الحب وعمل على الجمع بين الرجل والمرأة.. وهو ليس له مهمة إلا حصر الناس فى إحساسهم بحب الله..

وبدأت القصة تصور كأنها فضيحة تشمل المجتمع كله والبلد كله..

وتحركت الجهات الرسمية لفض هذه الضجة وعقاب المفضوحين.. وصدر قرار بعزل الشيخ جاسم عن إمامة الجامع أو أى جامع.. كما طرد مرتضى من عمله الذى يعيش منه كما طرد من البلد كله.. وتركت عدلية المدرسة قبل أن يصدر القرار بطردها..

والشيخ جاسم لا يزال رغم طرده من الجامع هادئا وقورا يعيش تعلق المسلمين به واللجوء إليه كإمام من أئمة الإسلام..

وابتسامته الحانية معلقة دائما بين شفتيه كأنها ابتسامة إشفاق على العاجزين عن الوصول إلى هداية الله.. إن الجامع ـ كما يقول ـ هو ما يجمع المسلمين بين يدى الله.. اللاجئين إليه مستغيثين به.. أى أنه ليس مجرد موقف كمواقف السيارات يقف فيه الناس لأداء فروض الصلاة.. بل هو بيت المجتمع الإنسانى يجمع بين المسلمين ليتداولوا فى مشاكلهم الدنيوية.. وقد كان محمد ﷺ يقود الناس ويحل المشاكل بين الأفراد من داخل الجامع.. بل إن الله فرض الحج إلى بيته لمن استطاع إليه سبيلا لا لمجرد التبرك به وتأكد إيمانهم، إنما ليتبادل المسلمون بين بعضهم وبعض مناقشة سبل حماية الإسلام.. تجمعهم لبعض.. وقد نبتت داخل الجامع حالة حب بين مرتضى وعدلية.. حب صاف نظيف يقاوم الشيطان.. فتدخل فى حالتهما حتى يعينهما على الشيطان.. وانتصر بهما فعلا على الخطيئة.. انتصر على الشيطان.. دون أن يظلم أحدا أو يجعل لانتصاره شهيدا أو ضحية.. إنما أزاح وضعا لم يفرضه الله.. فالله لا يفرض الزواج إلا على أساس الرضاء الكامل للزوج والزوجة.. واستمرار هذا الرضاء العمر كله.. وقد كان كل ما فعله يعيش هداية الله.. فالله هو الهادى للحب بين البشر.. ورغم ذلك فلا يزال الشيخ جاسم حتى اليوم محروما من الإشراف على أى جامع..

أما مرتضى وعدلية غادرا هذا البلد دون أن يفقد أحدهما فرحته بالآخر.. والاثنان مؤمنان بأن الله سبحانه هو الذي

جمعهما وجمعهما فى أطهر مكان يتوجهان منه إليه.. جمعهما فى جامع يؤديان على أرضه الصلاة..

ولم يعودا إلى مصر كأنهما مضطران لمدارة فضيحة.. فهما يعيشان الآن فى بلد آخر غريب بعيد.. كأنهما يحسان فى الغربة باقترابهما أكثر من الله سبحانه وتعالى..

وأصبحت عدلية حاملا..

تتطلع إلى مزيد من رضاء الله عليها.. فقد وفر لها الزوج الذى تحبه، وسيزيدها من فضله بأن يمتعها بأعلى درجات الحب..

الحلال أرخص من الحرام

(١)

كان يقال عن منصور عبد المجيد أن عقله «كمبيوتر».. أى عقل كأنه آلة حسابات يحسب كل ما فى الحياة بالأرقام.. وكل خطوة يحسبها قبل أن يخطوها.. كم تكلفه وماذا تحقق له.. وحتى عندما يأكل يحسب أنواع وقيمة الفتامينات فى صنف ما يأكله.. وقيمة ما يمكن أن يضيفه إلى هذا الصنف ليرفع من قيمة ما فيه من فيتامينات.. ويرفع من قيمة متعة مذاقه عندما يأكله.. ثم كم سيكلفه إعداد هذا الصنف من إنفاق.. وهل يوازى ما ينفقه ما سيعود عليه شخصيا من تزويد نفسه باستكمال الصحة والعافية.. وتزويدها بمتعة الأكل.. وحتى أحساسيه العاطفية يحسبها كلها بعقلية الكومبيوتر.. الحب له أرقام حسابية.. والصداقة.. والكراهية.. وقد يحس يوما أنه ينجذب إلى فتاة.. وقد يصل به انجذابه إلى طريق الحب.. ولكنه يحسب حساب الخطوة قبل أن يخطوها.. ويجد أن هذه الخطوة نحو الحب لن تكون فى صالحه ولا تحقق أهدافه فيتغلب الكومبيوتر عليه بسرعة ويستطيع ببساطة أن يقاوم انجذابه ويبتعد عن الطريق الذى يؤدى به إلى الحب.. وقد تتجه عواطفه نحو

كراهية شخص ما.. إنه لا يطيقه.. ولكن الكومبيوتر يبدأ فى وضع الحساب وينتهى إلى هذه الكراهية لن تفيده وليست فى صالحه.. ويستطيع الكومبيوتر أن يتغلب على عواطفه فيتخلص من هذه الكراهية أو يعيش مستسلما.. وهو فى طبيعته ليس كريما ولا بخيلا.. ولكنه مستسلم للأرقام التى يضعها له الكومبيوتر الذى يكمن فى عقله.. قد يدهش الناس وهو ينفق أمواله فى بذخ.. قد ينفق فى جلسة واحدة ألف جنيه.. لأن الكومبيوتر خرج بحساب أن هذه الجلسة تستحق ألف جنيه.. وفى جلسة أخرى قد يرفض إنفاق قرش واحد لأن الكومبيوتر قرر أن هذه الجلسة لا تستحق ولا قرشا واحدا.. إن يده لا تمتد إلى جيبه ليخرج منه القرش إلا بعد أن يطمئن إلى ما تعود به يده وتضعه فى جيبه.. والحياة كلها أرقام..

ولا شك أن هذا العقل الكومبيوتر الذى يعيش الحسابات ولا يتحرك إلا بالأرقام قد حقق لصاحبه نجاحا هائلا فى أعماله.. لقد أصبح الآن مليونيرا مشهورا فى مصر كلها.. وإن كانت شهرته محصورة فى داخل أعماله وأقنعته حسابات الكومبيوتر بأن يحصر شهرته داخل أعماله ولا يحاول أن يفرضها على الحياة العامة بأن يشتغل فى السياسة ويرشح نفسه مثلا لمجلس النواب أو يحاول أن يكون وزيرا بين الوزراء كما يفعل كثيرون من رجال الأعمال الذين وصلوا إلى مستوى المليونيرات.. ولكن هذا العقل الكومبيوتر وصل به فى الوقت نفسه إلى أن تكون حياته الخاصة حياة عجيبة..

لقد تزوج حتى اليوم سبع زيجات وأصبح يبحث عن الزوجة الثامنة.. ولم يكن لأى زوجة من زوجاته السبع أثر فى حياته.. بل لم تكن لإحداهن صورة واضحة فى المجتمع الذى يحيط به.. وإنما كان يتزوج وفقا لحسابات وأرقام تخص احتياجات حياته الخاصة جدا بعيدا عن عمله وعن المجتمع الذى يعيش فيه..

وهو يذكر أول زواج له..

كان لا يزال شابا فى الخامسة والعشرين من عمره.. ولم يخطر على باله أبدا أن يتزوج.. لم يكن فى حاجة أبدا إلى الزواج.. إنه بعد أن ترك بيت العائلة وأصبح يعمل ويحقق أرباحا وهو يعيش فى شقة خاصة مستقلا بنفسه.. ولا شىء ينقصه وهو مستقل هذا الاستقلال بحياته الخاصة.. بل إنه من هواة إدارة بيته بنفسه.. ويستطيع أن يضع نظاما محكما لكل ما يحتاج إليه البيت.. بل إنه كان يهوى الدخول إلى المطبخ بنفسه.. والنزول إلى الأسواق ليشترى اللحم والخضار ويتباهى وهو يعود إلى البيت حاملا بطيخة أو شروة برتقال.. إنه ليس فى حاجة إلى ست بيت حتى يفكر فى الزواج.. إنه رجل وست بيت..

إلى أن التقى بمديحة.. إنها فى بداية شبابها.. جميلة.. مثيرة.. خفيفة الدم.. إنه يحس بمتعة لمجرد رؤيتها والحديث معها حتى بين الناس.. ووجد نفسه ينجذب إليها انجذابا صارخا.. ولكن الانجذاب كان ينحصر فى أمل واحد.. وهو

أن يصل إليها.. أن يأخذها بين أحضانه.. وقد حاول الكثير.. بل إن شهوة شبابه تحدت الكومبيوتر الذى يضع له الحسابات فبدأ يسرف فى الهدايا التى يقدمها لها.. كأنه يدفع الثمن مقدما.. ولكن مديحة رغم انطلاقها لم تكن تعطيه شيئا أكثر.. ربما كانت لا تكرهه ولكنها لا تحبه إلى حد أن تعطيه أكثر.. ربما لأنه ليس وسيما ويستطيع أن يستغل وسامته فى إغراء أى بنت كما يفعل كثير من الشبان فى إغراء البنات.. إنه يعلم عن نفسه أنه ليس وسيما وسامة زاعقة ولكنه ليس قبيحا فى صورة وجهه أو فى قوامه.. إنه شكل عادى بين الرجال وإن كان يميل إلى القصر وله كرش منفوخ قليلا لا يستطيع أو يزيل انتفاخه.. ورغم ذلك ظل يلاحقها ويلح عليها ويسرف فى هداياه.. إنها كلفته كثيرا دون أن يصل إليها.. إلى أن بدأت تصارحه.. إن الطريق الوحيد إليها هو الزواج.. ربما كان ما يجعلها تقبل زواجه أنه من عائلة معروفة وأنه بدأ يعرف بأنه استطاع أن يحقق بسرعة نجاحا فى أعماله.. إنه شاطر..

ومضت أيام والكومبيوتر لا يكف عن الحسابات وتحديد الأرقام.. لماذا لا يتزوجها؟!

إن الزواج لن يكلفه إلا أن يدفع مهرا قد يصل إلى خمسمائة جنيه.. ومؤخرا للصداق يحدده قد يصل إلى خمسمائة جنيه أخرى.. وحيلة يشتريها كشبكة مهما غالى فى اختيارها لن يدفع ثمنا لها أكثر من ألف جنيه.. أما حياة مديحة معه فى بيته فلن ترفع مصاريف البيت كثيرا.. إن ما يكفى واحدا يكفى اثنين.. وانتهت حساباته إلى أن الزواج يكلفه أقل ما يكلفه اتخاذ عشيقة

بلا زواج.. الحلال أرخص فى تكاليفه من الحرام.. علاوة على ما يعطيه الزواج له من ملكية كاملة للفتاه التى تزوجها.. وهذا ما يجهله الشبان.. إنهم يتصورون أن الزواج يكلفهم أكثر من العشق.. أو أكثر من مطاردة البنات.. أبدا.. إن مديحة كلفته فى عام واحد أكثر من أربعة آلاف جنيه ثمن الهدايا وثمن استكمال مظاهر إغرائها.. ورغم ذلك لم يصل منها إلى شىء.. والزواج سيكلفه أقل ويصل به إلى كل ما فى مديحة..

وتقدم للزواج من مديحة..

وكان أهلها يعرفون حكاية سعيه وراء ابنتهم.. ومديحة لا تخفى عن أمها شيئا.. ومركز عائلته بالنسبه لهم وشهرته تدفعهم للموافقة فورا..

وكل ما طلبه منصور أن يتم الزواج فى حفل عائلى ساكت ضيق محتجا بأن زوج ابنة عمه لم يمض على وفاته أكثر من ثلاثة شهور.. ولم تكن حجة تكفى لإقناع العروس أو أهلها ولكنهم استسلموا.. وهو نفسه لا يكره الحفلات.. وليس منزويا عن سهرات الليالى الاجتماعية.. ولكن الكومبيوتر أقنعه بأن حفل الزفاف سيكلفه مبلغا كبيرا دون أن يعود عليه بشىء.. وهو يستطيع ان يستغل نصف هذا المبلغ فى قضاء أيام شهر العسل إنه لا يخرج قرشا من جيبه إلا بعد أن يحسب حساب ما يعود عليه منه.. ولو كان ما يعود إليه هو مجرد المتعة..

وتزوج فى الشقة التى يقيم فيها بعد أن تولى بنفسه تجديدها وإعدادها لكل ما يحتاجه زوجان.. وقضى شهورا وهو فى

منتهى المتعة.. والجمال.. والإثارة.. وخفة الدم.. وقد حدد لزوجته مسئوليتها منذ اليوم الأول.. إنها فقط مسئولية إمتاعه بنفسها.. أما باقى مسئوليات حياة البيت فهو الذى يتحملها.. لا يزال يتولى إدارة البيت.. ومحاسبة السفرجى الذى يقوم فى الوقت نفسه بعمل الطباخ.. ولا يزال يعود إلى البيت كل يوم وهو يحمل مشتريات السوق.. إنه لا يترك لها مسئوليات ست البيت.. فهو رجل البيت وأيضا ست البيت.. وحتى لم يترك لمديحة حق إقامة حفل تدعو إليه أفراد عائلتها أو صديقاتها إلا بعد الاتفاق معه.. وكان يوافق على كثير من الحفلات التى تطلب إقامتها.. ولكنه يجب أن يوافق أولا حتى يعتمد على الكومبيوتر الذى يضع له الحسابات.. وفى الوقت نفسه كان فى كل يوم بعد أن يخرج من البيت إلى عمله يترك لزوجته منتهى الحرية فى شغل وقتها.. إنها حرة فى الخروج من البيت بعد خروجه لتذهب لزيارة أمها أو أفراد عائلتها أو صديقاتها أو تذهب إلى السوق أو إلى النادى.. إنه يراعيها وينصفها بهذه الحرية.. فما دام قد خرج من البيت فلم تعد تزاول مسئوليتها الوحيدة وهى مسئولية إمتاعه.. ومن حقها أن تشغل أوقاتها وتسلى نفسها حتى لا تعانى من الفراغ.. ووجودها فى البيت وحدها فراغ.. لأنها ليست مسئولة مسئولية ست البيت.. وهو يرحمها من الفراغ ولذلك يطلق حريتها..

ولم يكن قد مضى عام واحد عندما بدأت متعته بزوجته مديحة تخفت وتذوب.. ولم تكن مديحة خلال هذا قد طرأ عليها أى بوادر حمل.. وهى تريد أن تنجب وأمها تكاد تجن فى انتظار

أن تحمل ابنتها.. وقد صحبتها إلى طبيب مختص.. إنها سليمة.. كل ما فيها سليم.. إن زوجها منصور هو الذى يجب أن يذهب إلى طبيب.. ولكنه لن يذهب.. لا لمجرد عدم رغبته فى الاعتراف بضعفه ولكنه لا يريد أطفالا.. ولم يتمن أبدا أن يكون أبا.. بل كان أحيانا يخطر على باله احتمال الإنجاب وزوجته بين أحضانه.. فينتابه نوع من الذعر ويتعمد أن يتخذ حركات تحول دون أن ينجب.. ماذا يفعل بالأطفال.. إن الكومبيوتر يرفض أن يدخل فى حساباته حساب الأطفال..

وتمضى الأيام ومتعته بزوجته آخذه فى الذوبان حتى ذابت كلها.. ولم يكن يفاتح زوجته بشىء مما يحس به أو يطمع فيه.. ولكنه بدأ يتخذ تصرفات تخفف عنه الملل والزهق.. فانتقل لينام لياليه فى حجرة النوم الأخرى بالبيت بعيداً عنها.. وحده.. ولم يعد يقضى ليالى بجانبها فى البلكون أو أمام التليفزيون كمقدمة للانتقال إلى الفراش.. بل لم يعد يبادلها هذه القبلات كلما خرج أو دخل.. وإذا وجد نفسه معها على مائدة الإفطار أو الغداء لم يجد موضوعا يتحدثان فيه.. لم يكن لهما إلا موضوع واحد وهو موضوع متعتهما أحدهما بالآخر.. لقد عودها على ألا يتحدث معها أبدا عن عمله أو عن مكتبه أو عما صادفه فى يومه.. فقط الحديث دائما عما بينه وبينها من متعة.. وقد ذاب ما بينهما من متعة ولم يعد بينهما ما يفتح مجالا لحديث سوى تناقل الأخبار العائلية فى جفاء..

ووصل إلى الاقتناع بأنه يجب أن يتركها.. إن الحياة الزوجية ليست مجرد مسئولية يفرضها المجتمع.. إنها متعة

وهناء واستقرار.. وهو لم يعد يعيش متعة ولا هناء ولا استقرارا.. وهو ليس مقتنعا بأن يحتفظ بزوجته ويتخذ بجانبها عشيقة تستكمل له متعته وتخفف من ملله وزهقه ولا أن يتخذ معها زوجة أخرى.. ليس هذا قطعا من حكمة الزواج.. إن الزواج كالحب.. اكتفاء ومسئولية وهو لم يعد يكتفى بزوجته ويضيق بمسئوليتها.. ولعل الكومبيوتر يرفض أن يجمع بين زوجتين أو يتخذ لنفسه عشيقة.. يجب أن يطلق مديحة..

وتم الطلاق بعد متاعب عنيفة بينه وبينها هى وأهلها.. وقد كان منصفا معها.. أعطاها كل حقوقها بل تعهد لها بأن يبقى مسئولا عن كل مطالبها إلى أن تتزوج رجلا آخر.. إنه إنسان.. ولكنها لم تطلب منه شيئا بعد طلاقها.. لقد تركته وهى تكرهه..

* * *

وعاد وحيدا ولكنها وحدة لم تستمر شهورا إلى أن التقى بسعاد.. ولم يحاول مع سعاد أى محاولة كالتى كان يحاولها مع مديحة قبل الزواج.. ولكنه انتظر إلى أن تأكد من انجذابه إليها وإلى أن تغلبت عليه رغبته فيها ولهفته على امتلاكها كلها.. مع إيمانه بأن الحلال أرخص من الحرام.. وفاجأها بلا مقدمات قائلا فى بساطة:

ـ هل نتزوج؟

ودهشت سعاد.. ولكنه كان قد ازداد نجاحا فى عمله.. وازداد ثراء.. وازداد شهرة فى مجتمعه.. وأصبحت الأحلام وصور الحياة تغرى أى فتاة بأن تتزوجه..

وتزوج سعاد.. وأيضا رفض إقامة حفل زفاف عام.. وكانت حجته هذه المرةأنه سبق له الزواج ولم يعد من حقه أن يفرض على الناس فرحتهم بزواجه الثانى.. لقد أصبح زواجه أمرا متعلقا بحياته الخاصة بعيدا عن الناس.. وهو لم يغير شيئا فى بيته لا ستقبال العروس الجديدة إلا أغطية الفراش.. إن البيت لا ينقصه شىء..

وعاش مع سعاد كما عاش مع مديحة.. وإن كانت سعاد أهدأ وأضعف وليست فى خفة دم مديحة.. وانتابه الشبع منها وأيضا بعد عام واحد دون أن ينجب منها.. وطلقها.. وكان طلاقها أسهل فهى وعائلتها أرقى ترفعا من عائلة مديحة..

* * *

وعاد إلى وحدته متفرغا لعمله ليحقق نجاحا أبعد ويصل إلى الملايين..

وحاول أن يعدل عن أسلوب حياته الخاصة.. إنه لن يتزوج مرة ثالثة.. حتى لو كان الزواج أرخص فمتاعبه أكثر.. وإذا كان من طبيعته اعتبار المرأة مجرد متعه.. فلماذا تكون زوجة.. وهو الآن يمتلك الكثير.. إنه مليونير.. لا يهمه ما يكلفه الحرام من مال ما دام فى حاجة إليه..

وكان مجتمعه.. مجتمع رجال الأعمال.. قد اتسع وأصبحت لياليه تضم نوعا من النساء ليست لهن مظاهر الاحتراف ولكنهن يعطين أنفسهن مع الاحتفاظ بالاحترام المتبادل.. وبدأ يستجدى هذا النوع من النساء ليخفف من وحدته.. ولكن مستحيل.. إن

عواطف المعروفة فى المجتمع الراقى كلفته الكثير.. ربما أكثر من عشرة آلاف جنيه حتى تعطيه ساعات من الليل.. والسيدة إيناس أعطته ساعات بعد أن عاد إليها من رحلة قام بها إلى باريس يحمل لها ما طلبته.. وكانت تطلب فى أسلوب ساخر كأنه لا يهمها أن يلبى مطالبها أو لا يلبيها.. وقد لباها كأنه يتحداها ويفرض عليها الاعتراف بسلطانه.. ورغم ذلك أخذت دون أن تعترف له بأى شىء ودون أن تعطيه أكثر من هذه الساعات.. رغم أنه دفع لشراء مطالبها الكثير.. آلاف الدولارات.. إن هذا النوع من النساء يغطى عورته بنوع من الترفع والكبرياء المصطنع..

وعقله الكومبيوتر لا يزال يلح عليه ويفكره بأن الحلال أرخص من الحرام ويعطى أكثر.. أى يجب أن يتزوج.. إلى أن التقى بسهام.. وقد جذبته مع قدر كبير من الاحترام.. إنها من عائلة أكبر من عائلته.. ووالدها أنجح منه فى صفقات الأعمال ويفوقه ثراء.. وهى مطلقة كما أنه مطلق.. وليس لها أبناء كما أن ليس له أبناء.. إنها ظروف مشتركة يمكن أن تجمعهما فى زواج.. وقد بدأ بأن استطاع أن يشترك مع والدها فى صفقة واحدة ناجحة.. ثم تقدم إليه يطلب يد ابنته.. طلبها من أبيها لا من نفسها.. وقد ترددت سهام طويلا فى قبوله كزوج وكانت أقرب إلى الرفض.. ولكن والدها كان قد أصبح فى منتهى الإعجاب بذكاء منصور وشطارته فأخذ يلح على ابنته حتى قبلت الزواج.. ولم يتردد منصور فى دفع أعلى ما يمكن أن تكلفه زيجة.. إنها زيجة محترمة ومشرفة.. وكان بعد أن ارتفع

ثراؤه قد ترك بيته وانتقل إلى بيت جديد.. ڤيلا رائعة فى ضواحى القاهرة أقرب إلى أن تكون قصرا.. وعهد إلى أرقى وأشهر مهندس ديكور بتأثيثها فأصبحت كأنها معرض لآخر ما وصل إليه فن قطع الأثاث والتحف.. وهو بيت لم تدخله زوجة أخرى قبل سهام..

وأتم الزواج بلا حفل.. فكلاهما مطلق وليس مفروضا أن يقيما حفلا لزواجهما.. ولكن سهام لا يمكن أن تعيش كمجرد متعة لزوجها.. بل لا يمكن أن تقبل أن تكون تحت أمر زوجها.. هو الذي يجب أن يكون تحت أمرها.. وهو لا شأن له بإدارة البيت وشئون الحياة الزوجية.. هى وحدها ست البيت.. وكل ذلك يخالف طبيعة منصور.. وبدأ النقاش يحتد بينهما منذ الأيام الأولى للزواج.. وأصبحت هى التى تجود عليه بنفسها إذا أرادت كأنها تتعطف عليه.. أولا تجود عليه عندما تقرر أنه لا يستحق ولو مجرد لمسة على جسدها..

ولم تكن قد مر سوى ثلاثة شهور عندما عاد إلى البيت ولم يجدها.. لقد هجرت البيت وتريد الطلاق.. هى التى تريد الطلاق وليس هو..

واعتذر له أبوها بأن من المستحيل إقناعها بالعودة إليه.. وتم الطلاق.. وهو يحس كأنه خسر صفقة كان يبنى عليها آمالا كبيرة.. بل كانت سهام هى أول زوجة يتمنى أن ينجب منها.. إن ابنه منها لن يرثه وحده بل سيرث أيضا أباها.. أى أنه هو الذى سيأتى يوما ويضم شركات أبيها إلى شركاته بحكم الوراثة.. إنه مهزوم.. أول مرة يحس بمرارة الهزيمة..

وعاش وحدته وهو يبحث عن الزوجة الرابعة.. ما ذنبه إذا تعددت زيجاته.. هذا حكم القدر الذى أقام طبيعته كإنسان ورسم حظه من الحياة..

إلى أن التقى بأمينة.. إنها ابنة رفعت عوض الموظف فى شركته، وكان قد بدأ موظفا صغيرا ولكنه ارتفع إلى أن أصبح يحمل مسئوليات كبيرة.. وقد رأى أمينة عندما دعاه أبوها فى استجداء ليتشرف بزيارته على دعوة للعشاء.. إنها جميلة.. هادئة.. حالمة.. تتحدث كأنها تعزف على جيتار.. إنه يريد أن يجرب زوجة من هذا النوع.. ويحس بانجذاب إليها.. وانجذابه يشتد.. وبعد أيام استدعى أباها رفعت عوض إلى مكتبه وبدأه بحديث عن العمل، ثم قال مبتسما كأنه يرفع الكلفة بينهما:

ـ لماذا لم تتزوج ابنتك حتى الآن؟

وقال رفعت وهو يتنهد وإن كان سعيدا برفع الكلفة بينه وبين منصور:

ـ إنها متعلقة بشاب أرفض أن أقبله زوجا لها.. وهى لا تزال مصرة عليه وترفض كل من يتقدم إليها غيره.. حتى وصلت الآن إلى الخامسة والعشرين من عمرها وهى لم تتزوج.. أنا مصر على رفضه وهى مصرة على ألا تتزوج غيره..

وفكر منصور قليلا ثم قال:

ـ هل تستطيع أن تقدم لى هذا الشاب؟

وقال رفعت فى دهشة:

ـ لماذا؟

وقال منصور مبتسما:

ـ سأريحك منه.. واسمع كلامى..

وجاءه هذا الشاب.. ممدوح ماهر.. إنه وسيم رشيق ولكنه لا يمثل شخصية جادة محترمة ولكنه يمثل شخصية فهلوى أقرب إلى الانحلال.. وعرض عليه منصور فورا وظيفة فى الشركة وقال كاذبا.. إنه سمع عنه من الأستاذ رفعت عوض الذى يهتم بمستقبله.. وفرح ممدوح فرحة كبيرة..

فالمرتب مغر وهو لم يكن يحلم بأن يعين فى شركة محترمة وفى مركز محترم..

بدأ منصور يتعمد أن يستدعيه كل يوم ويكلفه بمهام هو نفسه يعلم أنها مهام مظهرية لا قيمة لها.. إلى أن قال له بعد أيام:

ـ لقد اكتسبت ثقتى بسرعة حتى إنى أكاد أعتبرك أخى الأصغر.. والشركة تعانى من مشكلة حساسة أعتقد أنك الوحيد الذى يمكن حلها.. فإنى لم أعد مطمئنا إلى إدارة مكتبنا فى نيويورك بأمريكا.. وأريدك أن تذهب إلى هناك وتبحث فى كل ما يجرى فى هذا المكتب وترسل إلى تقريرا وراء تقرير بكل ما تكتشفه.. هل تقبل..

وانتفض ممدوح من الفرح.. إنه لم يكن يحلم أبدا بالوصول إلى أمريكا.. وإن كان يتخيل فى صباه أنه ذهب إلى هيوليود وضحك على إحدى الممثلات الأمريكان وأصبح دون جوان عالمى.. ووافق طبعا وهو يكاد ينحنى ليقبل يد منصور..

وقبل أن يحدد ممدوح موعد سفره استدعاه منصور وحدثه قليلا عن العمل، ثم قال كأنه فعلا يحادث أخاه الأصغر:

- إنى أعلم أنك صديق عائلةرفعت عوض، فما رأيك فى ابنته.. ودهش ممدوح وقال وهو حائر:

- إنها آنسة كاملة مهذبة..

وقال منصور وهو يدعى التردد:

- لقد قررت أن أطلبها لاتزوجها.. فإنى أعانى الوحدة.. وأريدك أن تفاتح أباها فى الموضوع تمهيدا لى..

وفغر ممدوح فاه من المفاجأة ثم تماسك سريعا وقام على عجل وهو يقول:

- حاضر..

وكان هذا هو التخطيط الذى وضعه منصور للوصول إلى أمينة.. إما أن يقنع حبيبها بأن يتركها له، وإما أن يحرمه من السفر إلى أمريكا ويطرده من الشركة.. وقد نجحت الخطة.. وسافر ممدوح إلى أمريكا بعد أن أعلن أمينة بأنه لن يتزوجها بل ويحاول إقناعها بأن تتزوج منصور.. أما أبوها فلم يكن يستطيع أن يرفض لمنصور طلبا.. إنه ولى نعمته والمسيطر على مستقبله.. واضطرت أمينه إلى الاستسلام كأنها تنتحر.. وتزوجها منصور..

وكان هذا الزواج يمكن أن ينتهى بعد عام واحد.. فالحياة بين الزوجين ليس فيها أى إحساس.. حتى وهو يحتضنها يحس

كأنه يحتضن وسادة خالية فارغة.. ولكنه تحمل عاما آخر من أجل خاطر أبيها.. ثم طلقها بعد أن قال لها:

- إنى أعلم أنك كنت تحبين ممدوح.. وسأستدعيه لك من أمريكا لتتزوجيه إن كنت لا زلت تقبلينه زوجا..

ولم ترد أمينة بعد أن أصبحت تعيش معه فى صمت..

وطلقها بعد أن دفع تعويضا كافيا لمراضاة أبيها.. ولكن ممدوح لم يعد من أمريكا.. لقد ترك العمل لحساب منصور وظل فى أمريكا يعمل لحسابه..

* * *

وكانت هذه هى الزوجة الرابع..

أما الخامسة فكانت حكايتها غريبة على قدر ما هى بسيطة

(٢)

وقد وجد منصور عبد المجيد زوجته الخامسة فى أمريكا..

كان فى أمريكا بعد أن أتسعت أعماله هناك وأصبح يسافر إليها أكثر من مرة كل عام.. والتقى بليزا فى دعوة أقامها جونسون مدير إحدى الشركات التى يتعامل معها.. إنها شقيقة صاحب الدعوة.. وهى مرحة.. لا تكف عن التهريج والتنطيط وهى تراقصه.. رغم أنها تبدو كبيرة فى السن.. ولعلها أكبر منه.. فهو الآن فى الثانية والأربعين من عمره ولعلها اقتربت من الخمسين فى عمرها.. وقد تعمد أن يشبع مرحها.. وكان يجيب على كل سؤال توجهه إليه عن مصر اجابات هزلية تطلق وراءها ضحكات صاخبة.. بل قام يراقصها وترك لها حرية التنطيط إلى اخرها.. وقرب انتهاء الحفل سألها أن تحدد له موعد اللقاء..

وقال ضاحكا:

ـ أنت وأنا وحدنا..

وفرحت ضاحكة وحددت له موعداً وكان حتى هذا اليوم لم يقرر شيئا بالنسبة لليزا.. إنه فقط يريد أن يكسب أخت مدير الشركة ليستغلها فى تسهيل أعماله.. ولكنه بعد أن تعدد لقاؤه بها بدأ ينتابه إحساس بالمغامرة.. لماذا لا يتزوج أمريكا.. أى يتزوج ليـزا.. ولم يطرأ على باله المبـدأ الذى يؤمن به والذى يرفع شعار.. الحلال أرخص من الحرام.. فقد فهم من شخصية ليزا أنها مستعدة أن تعطى أى شيء مجانا.. سواء الحلال أم الحرام.. ولكن كـان مـا يطرأ على باله هو أن يقيم عـلاقـة شرعيـة مع أمريكا.. إن السوق الأمريكى أصبح هو السوق الأقوى بالنسبة لمصر.. بل إن الديون والهبات التى تجود بها أمريكا على مصر أصبحت توزع فى مصر على شركات القطاع الخاص على أن يستغلوها فى السوق الأمريكى.. وقد حصل على مبالغ من هذه الديون.. وربما استطاع أن يستغل نفوذ أخى ليزا ليحصل على مبالغ أكثر وليصل إلى أسواق أوسع وخصوصا أسواق الأسلحة.. إنه لو استطاع أن يصل إلى عمليات بيع الأسلحة لتضاعفت ملايينه وأصبحت بلايين..

ووقف ملتصقا بليزا كأنه واقف أمام آله من آلات القمار التى تسقط فيها قطعة من النقود وتشد ذراعها فإما أن تسقط منها عشرات الدولارات أولا يسقط منها شيء.. إنه يقامر بليزا.. وقال لها بهذه البساطة المرحة التى تعودا على أن يتحدثا بها:

ـ هل نتزوج..

وصرخت ليزا فى مرح وقالت من خلال ضحكتها المرحة:

إن آخـر زوج كـان لى مـات منذ سنوات فى فـيتنام.. ومن يومها لا أجد أحدا أضايقه وأعذبه.. وأحب أن أعذبك.. إني أريد أن أرى مصر وأعيش فيها..

وفى اليوم التالى تزوجا زواجا مدنيا.. وأقام لها أخوها حفل استقبال قدمه فيها إلى كثير من الشخصيات التى لها قيمة فى مجال الأعمال.. إن أخاها لم يبد رأيا فى هذا الزواج.. إنه فقط يقوم بالواجبات العائلية الرسمية.. كما تنازل لهما عن بيت من بيوت العائلة يقيمان فيه إلى أن ينتقلا إلى مصر..

وقـد لاحظ منصـور منذ الأيام الأولى أن ليـزا لا تطيق الاستماع إليه وهو يتحدث عن عمله.. ولا تقبل أن يكفلها بأى مهمة فى أى تخطيط يضعه.. إن الحياة معه بالنسبة لها هى مجرد قطع الوقت وملء الفراغ.. إلى أن قالت له بصراحة:

ـ لا تتعبنى وتصدع رأسى بالحديث عن أعمـالك.. إنهـا خاصة بك.. كما إنى لن أتعبك وأصدعك بما يخصنى.. إنها تحدد مسئوليته بإمتاعها كما كان هو يحدد مسئوليات زوجاته السابقات بإمتاعه.. وقد يحقق لها المتعة ولكنه لا يجد فيها متعة.. إنها فى عمرها لا يمكن أن تكون امرأة ممتعة..

أما أخوها رجل الأعمال الخطير فهو يلتقى به دون ترحاب صادق وغالبا فى مناسبات عائلية.. ويستمع إليه طويلا وقد يصارحه بآرائه ونصائحه.. ولكنه عجز أن يشده إلى المساهمة

معه فى مشروع أو حتى مساعدته فى مشروع.. حتى يئس منه ويبدأ يحاول الاعتماد على الشخصيات الأخرى التى عرفها عن طريق ليزا وجونسون.. ولكنه لم يصل إلى شىء ولم يحقق شيئا من أحلامه.. لقد خسر لعبة القمار.. ولم تسقط عليه آلة القمار ولا مليما..

ورغم ذلك احتمل.. وعاد إلى القاهرة وليزا معه .. ربما أراد أن يتباهى أمام الناس فى مصر بأنه تزوج أمريكا.. وكان المفروض أن يعقد مع ليزا عقد زواج مصرى شرعى بجانب العقد الأمريكى حتى يؤكد الزواج.. ولكنه لم يفعل.. وليزا لم يخطر على بالها شىء من هذه التفاصيل.. وهى منذ وصلت إلى مصر وهى متفرغة للسياحة.. تريد أن تتفرج على كل مصر وتشاهد كل قطعة تركها الفراعنة.. وكان يتركها تسيح وحدها.. وسافرت حتى الأقصر وأسوان وحدها.. وهو لا يحس حتى بمجرد انتظارها.. إنه يتركها حرة وكلما عادت إليه دعا أصدقاءه ليشهدهم على أنه تزوج أمريكا..

ولم يكن قد مر أكثر من خمسة شهور على زواجهما عندما عادت إليه ليزا بعد رحلة من رحلاتها السياحية وقالت له:

- أعتقد أنى تفرجت على كل مصر وما فى مصر.. ولم تعد بى حاجة للبقاء فى مصر.. سأعود إلى أمريكا وأنتظرك إلى أن تستطيع أن تأتى إلىّ.. إن لك أعمالا كثيرة هناك وستتردد علىّ كثيرا..

وقال وهو يضحك ضحكة ساخرة:

- إن تقاليدنا فى مصر لا تسمح بأن تترك الزوجة زوجها أبدا وتسافر وحدها..

وقالت وهى تضحك معه:

- يقال عن مصر إنها بلد عاطفى .. ويجب أن تقدر أن فراق الجسد لا يعنى فراق الروح.. ومهما ابتعدنا عن بعض بأشخاصنا فنحن فى لقاء دائم بروحينا..

وقال فورا:

- أعتقد أنه من الأفضل لنا أن نعيش الحب دون أن نتقيد بهذه الحبال التى يشدنا بها الزواج.. حتى يكون الحب حرا..

وفهمت وقالت دون أن تتغير لهجتها:

- أنت على حق..

وذهبا فى اليوم التالى إلى السفارة الأمريكية وسجلا إلغاء عقد الزواج الذى تم فى أمريكا.. وتركته وعادت إلى بلدها..

إنه لم يحبها أبدا.. ولا حتى جذبته كامرأة.. ولكنها كانت مجرد لعبة من ألعاب القمار وخرج منها خاسرا.. ورغم ذلك فهو كلما سافر إلى أمريكا تعمد لقاءها.. وتعمد أن يقبّل اللعبة الخاسرة قبلات باردة..

* * *

وكانت ليزا هى الخامسة:

أما السادسة .. بثينة.. فقد كانت أخته الأكبر منه هى التى دفعته إليها ودفعتها إليه.. فعلى غير عادتها بدأت أخته تتردد عليه كثيرا.. وكل حديثها معه عن الزواج.. وكانت تحلل له أسباب طلاقه المتكرر من زوجاته.. وتؤكد أن الطلاق كان بسبب أنه لم يتزوج أبدا زواجا عائليا كاملا.. أى تتولى العائلة البحث له عن عروس.. وتقوم العائلة بكل الإجراءات والمظاهر العائلية التى تحيط بالزواج.. حتى يكون زواجا لتكوين عائلة لا مجرد زواج رجل أعجب بفتاة واشتهاها.. وقالت له إن سمعته أصبحت فى لون الطين الأسود القذر من كثرة زيجاته.. ولكنها ستحاول أن تنظف سمعته وتعيد ثقة العائلات فيه كزوج وتختار له الزوجة التى يعيش بها ومعها إلى أن يموت..

ووافق منصور أخته على كل ما قالته بلا مبالاة.. إنه الآن لا يريد الزواج ولكنه قد يتزوج بعد أن يرى المرأة التى ترشحها له أخته.. إنه لم يكن يتزوج إلا بعد أن تشده إلى الزواج فتاة يراها..

وجاءته أخته بعد أيام وقالت له إنها وجدت له الزوجة .. بثينة.. وقد بذلت المستحيل حتى يرضى أهلها به بعد أن نظفت سمعته الملوثة.. وهى صغيرة بالنسبة له.. إنها فى الثالثة والعشرين.. ولكن هذا أفضل له لأنه يكون كأنه يحمل مسئولية تربيتها وتشكيلها فى الصورة والشخصية التى يريدها ويمكن أن

تريحه.. وهى لم تتم تعليمها وتتخرج فى الجامعات كبنات هذه الأيام فعائلتها عائلة محافظة لا تلقى ببناتها فى الجامعات بين الشبان..

وهذا أيضا أفضل له حتى لا تعتمد إلا على أهلها ثم على زوجها.. كما أنها عائلة ليست غنية.. وهذا أفضل له حتى تبقى العروس وعائلتها كلها فى حاجة إليه ومتباهية به..

وقررت أخته أن تقيم دعوة على العشاء يرى فيها العروس التى ترشحها له..

إنها حلوة.. مثيرة رغم الحياء الذى تدعيه وهى أمامه.. بل إنها توحى له بمجرد منظرها أنها فتاة جريئة.. مغرية.. ولكنها أصغر منه بكثير.. أصغر منه بأكثر من عشرين عاما.. ورغم ذلك فليجرب..

وتولت أخته مسئولية كل إجراءات ومظاهر الزواج.. وكان الحفل الذى صممت أن تقيمه أكبر من أى حفل زواج أقامه منصور لكل زيجاته وإن كان قد صمم على ألا يقام الحفل في أحد الفنادق كما كانت تريد أخته..

ومنذ اليوم الأول للزواج ومنصور يحس كأنه يربى قطة.. ويهنأ بمداعبتها.. وبثينة تعطيه أكثر هذا الإحساس بادعائها السذاجة وبتدللها.. ولكنه أيضا كان يتمتع بها كامرأة.. إنها تعرف أكثر مما كان يعتقد عن طريق الوصول إلى إمتاع الزوج..

ومرت شهور وهو سعيد .. مستسلم لكل المظاهر العائلية التى تسلطها عليه أخته وأهل بثينة .. ولكن بدأت حياته تدخل فيها مظاهر عجيبة .. كأن يصادف أن يدق جرس التليفون وهو فى البيت ويرفع السماعة فلا يرد عليه أحد ويقطع الخط فى وجهه ويحس أن عنقه قد قطع .. وقد تكرر هذا أكثر من مرة .. وكان لا يعود إلى البيت إلا ويجد بثينة راقدة فى الفراش وهى تتحدث فى التليفون .. ولا تكاد تراه أمامها حتى تقول فى السماعة .. حاسيبك ياماما .. جاء منصور .. ويسمعها كأنها تقول .. جاء الشر .. أو جاءت المصيبة .. وهى دائما تقول كلما ضبطها تتحدث فى التليفون إنها تحادث أمها .. وهو كعادته كان يترك لها الحرية بمجرد أن يغادر البيت كما كان يفعل مع زوجاته السابقات .. مصرا على اقتناعه بأن كل مهمة الزوجة هى إمتاعه . فإذا غادر البيت لم تعد لها مهمة ويخشى عليها من الملل والزهق والفراغ فيمنحها الحرية إلى أن يعود إليها .. وكانت بثينة تخرج من البيت وراءه كل يوم تقريبا .. وتقول له دائما إنها كانت فى زيارة أمها .. وقد عاد إلى البيت مرة فى موعد الغداء كعادته فلم يجد بثينة قد عادت .. فرفع سماعة التليفون فورا كأنه يرد أن يضبطها واتصل بأمها يسألها:

- هل بثينة عندكم؟

وقالت فى صوت مرتعش:

- كانت هنا .. وقد تركتنا منذ دقيقة واحدة .. ربما تأخرت معنا فقد كانت الخياطة معنا .. وستكون عندك بعد لحظات ..

وارتفعت درجة شكوكه مع ارتعاشه صوت أمها .. وعادت بثينة إليه بعد لحظات فعلا .. ولم يحاسبها أو يقول لها شيئا .. ومرت أيام والشك يستبد به .. وطرأت على باله فكرة يحاول بها أن يتخلص من شكه .. فبقى فى البيت ذات يوم ولم يخرج إلى مكتبه كعادته .. وطبعا بقيت معه بثينة دون أن تحاول أن تتحدث فى التليفون الذى كان قد حمله بعيدا عنها ويبدو على وجهها الضيق والكمد .. ربما لمجرد أنه لم يخرج من البيت ويتركها وحدها حرة .. ودق جرس التليفون ورفع السماعة فلم يرد عليه أحد .. وبعد لحظات أدار قرص التليفون وهو بعيد عنها وطلب أمها وقال لها فى رقه؟

- هل بثينة عندكم؟

وعاد يسمع الصوت المرتعش والأم تقول له:

- لقد كانت هنا وخرجت منذ دقائق .. أعتقد أنها ذهبت تطوف ببعض الحوانيت .. إنها تبحث عن ثوب جديد .. لقد دللتها يا منصور بيه حتى أصبحت لا تكف عن شراء الفساتين ..

وشكر الأم ووضع سماعة التليفون فى هدوء:

إن زوجته تخونه .. وأمها تتستر عليها .. ربما كانت على علاقة قديمة برجل من قبل أن تتزوجه وأمها تعلم كل شىء .. ولكنه يجب أن يكتشف بنفسه كل شىء .. ولم يحادث بثينة فى شىء .. وتركها وخرج إلى مكتبه فورا .. إنه أقام فى مكتبه قسما

خاصا يضم نوعا من الموظفين لهم مواهب معينة.. ويسميه.. «إدارة جمع المعلومات».. وهو فى الواقع قسم للتجسس على منافسيه فى أعماله.. واستدعى الموظف الذى يثق فيه بهذا القسم.. وبدأ يضع معه الخطة.. واستطاع بنفوذه أن يفرض رقابة خاصة على تليفون بيته.. كما تم تنظيم الخطة مع السائق الذى يتولى قيادة السيارة التى كانت مخصصة لزوجته..

وفى أيام تجمعت لديه كل المعلومات.. إنها على علاقة بشاب اسمه كريم.. وتخرج من البيت وتنزل من السيارة فى ميدان الدقى.. وتسير إلى أن تصل إلى شارع منزو ثم تدخل فى عمارة.. وتصعد إلى الدور الثالث.. وتختفى داخل الشقة رقم ٣٢..

وخططت عملية ضبطها..

وفى صباح يوم اتصل به سائق سيارة بثينة بالتليفون وأبلغه أنه أوصلها إلى ميدان الدقي.. وبسرعة اتصل بأخته الكبرى فى التليفون، وقال لها:

ـ سأرسل لك سيارة حالا تحملك للقاء زوجتى بثينة.. وسيكون معك أحد موظفى مكتبى.. أرجوك.. لا تسألى ولا تجادلى..

واستسلمت أخته فهى تعرف طبيعة أخيها عندما يكون جادا وتخافه.. وحملتها السيارة إلى الشارع القريب من ميدان الدقى

ومعها الموظف وهو رجل يتميز بالضخامة وقوة العضلات.. ودخل بها عمارة وصعد بها إلى الدور الثالث ووقف يدق جرس الشقة رقم ٣٢..

وبعد فترة طالت قليلا.. فتح الباب شاب كان لايزال يزرر جاكتة البيجاما التى يرتديها.. ودفعه الموظف فورا إلى داخل الشقة وأغلق الباب وراءه بعد أن دخلت معه أخت منصور.. وتطلع الموظف حوله يبحث عن شىء ثم دخل إلى الحجرات وهى وراءه.. والشاب واقف فى ذهول.. إلى أن وجدا بثينة فى غرفة النوم راقدة على الفراش وهى عارية..

ودقت أخته على صدرها وهى تصيح لاهثة:

ـ يا خبر أسود..

لقد تعمد منصور أن تكون أخته هى التى تضبط زوجته حتى يكون الطلاق عائليا كما كان الزواج عائليا..

وقد تم الطلاق فى هدوء.. وتعمد منصور أن يبقى كل شىء سرا من الأسرار العميقة لا يعرفه أحد.. رغم أن سمعته ستزداد سوادا بإضافة زوجة جديدة إلى حياته.. وربما اعتقد الناس أن بثينة مسكينة غلبانة لأنها تزوجت هذا الرجل الذى تعود أن يطلق كل من يتزوجها..

* * *

وعاد إلى وحدته..

عاد منهارا.. فهذه الزوجة الأخيرة هى الوحيدة التى تجرأت على خيانته.. تجرأت على شرفه.. وعلى هيبته.. وتجرأت على هذه الملايين التى يملكها والتى كان يعتقد أنه يستطيع أن يحمى بها شرفه ويشترى بها أى شرف آخر.. لقد ارتكبت جريمة فى كيانه لا يتوقف بعدها نزيف قلبه ولا نزيف عقله.. حتى الكومبيوتر توقف ولم يعد يستطيع أن يقوم له بالحسابات التى ترسم له كل خطوة..

وقاده الانهيار إلى إلقاء نفسه فى سهرات الليل الخاصة الماجنة المنحلة.. يقيمها أحيانا فى بيته.. أو يقيمها له أحد أفراد هذا النوع الرخيص من الأصدقاء.. بل إنه بدأ يشرب الخمر.. رغم أنه كان معروفا عنه أنه لا يشربها أبدا.. ولا يطيق رائحتها..

وكان يقيم إحدى هذه السهرات فى بيته.. فى الفيلا الرائعة التى تكاد تكون أقرب إلى قصر.. وقد جمع فيها هذا النوع من الرجال والنساء المتخصصين فى الترفيه عن الداعى باسم الصداقة.. وكان بينهم فردوس التى تدعى أنها فتاة من ممثلات السينما.. إنها معروفة بأنوثتها وليست مشهورة بفنها.. وكان ملتصقا بها يداعبها وتداعبه والخمر تتلاعب به.. إلى أن قال لها وهو يدعى الهمس:

ـ الليلة لى..

وقالت بعد أن أطلقت ضحكتها الخليعة:

ـ إنى لا أكون لأحد إلا بعد توقيع العقد..

وقال ولسانه المخمور يلتوى

ـ أى عقد:

قالت من خلال ضحكتها الخليعة:

ـ عقد الزواج طبعا..

وابتسم بينه وبين نفسه وعقله الكومبيوتر متوقف تماما.. إنها فعلا معروفة بتعدد زيجاتها.. ربما تزوجت حتى الان ثلاث أو أربع مرات.. إنه يفوقها فى عدد الزيجات.. لماذا لا يتزوجها.. والحلال على كل حال أرخص من الحرام خصوصا مع هذا النوع من النساء..

وأشار بيده واستدعى أحد العاملين عنده وأمره أن يذهب إلى مأذون الحى ويستدعيه فورا ويوقظه من النوم إذا وجده نائما.. ثم صاح بين مدعويه بلسانه المخمور:

ـ يا إخوانى .. سأتزوج فردوس..

وجاء المأذون وكتب العقد فعلا بين الأغانى والرقصات والتهليل.. وفوجىء فى صباح اليوم التالى عندما استيقظ من النوم ووجد فردوس نائمة بجانبه.. وتذكر ما أرتكبه وهو سكران.. لقد تزوج فردوس.. لقد أسقط على رأسه مصيبة كأنه انتحر.. وكان أول ما فكر فيه أن تبقى هذه المصيبة سرا حتى لا

تفضحه بين الناس.. واستطاع أن يقنع فردوس بعد أن أفاقت من نومها بالإبقاء على زواجهما سرا.. وحتى يكون سرا فهو يرجوها أن تعود وتقيم فى بيتها ويلتقيا فى السر كزوجين.. وتعهدت فردوس بأن تراعى هذا السر ولكنها قالت له وهى تمثل دور الحياء إنها لا تستطيع أن تعود إلى بيتها:

وقال متوسلا:

ـ لماذا؟

وقالت وهى تخفى عنه وجهها مدعية الحياء:

ـ إنى مدينة وقد أبلغنى الدائن بأنه سيأتى إلى بيتى ليعلن الحجز عليه..

وقال بسرعة:

ـ وما مبلغ هذا الدين؟

وقالت فى حيائها المفتعل:

ـ عشرة آلاف..

وقال بسرعة:

ـ اذهبى إلى بيتك وسددى له الدين..

وأعطاها عشرة آلاف جنيه..

وهذا الزواج رغم أنه كان حريصا على أن يحتفظ به سرا إلا أنه عرف وأصبح خبرا هاما من أخبار المجتمع يتندر به الناس.. ولكنه لا يزال يقنع نفسه بأنه لا يزال سرا..

وهذه المصيبة التى ارتكبها فى حق نفسه كان لها فضل إنقاذه من انهياره.. لقد ابتعد من يومها عن هذه السهرات الماجنة.. وامتنع عن شرب الخمر.. وعاد عقلة الكومبيوتر كما كان.. عاد كله كما كان.. وانحصر كل تفكيره فى كيف يتخلص من هذا الزواج.. كيف يتخلص من فردوس..

وفردوس تأتى إليه فى البيت كل مساء وهى فى كامل شخصية الزوجة.. إنها تتصرف كأنها ست البيت.. والرجل رجلها.. وكل ما يملكه تملكه هى.. وهى لا تكف عن مطالبها التى تكلفه كثيرا.. وهى تريد أن تنتج لنفسها فيلما سينمائيا.. إن إنتاج فيلم هذه الأيام قد يكلف حوالى نصف مليون جنيه وفردوس لا تفرق بين الحلال والحرام.. كله ثمن واحد.. لا .. إنه لا يستطيع أن يستسلم إلى هذا الحد..

ولم يكن قد مضى شهرين عندما فاتح فردوس فى الطلاق.. إنه لا يستطيع أن يطلقها قبل الاتفاق معها حتى لا يعرض نفسه للفضيحة التى يمكن أن تثيرها وتشهر به وبكيانه كله الذى يقوم عليه عمله..

ولم تفاجأ فردوس بطلب الطلاق.. إنها لا تتزوج إلا لتطلق سواء طلقها الزوج أم طلقته هى.. ولكن كم تدفع يا منصور بيه؟

ودفع منصور مبلغا ضخما لفردوس وتم الطلاق..

وقد استطاعت فردوس بما أخذته أن تنتج فيلما لنفسها فعلا.. ولكنه كان فيلما فاشلا.. فهى لا يمكن أن تكون مشهورة كفنانة ولكنها معروفة كأنثى..

وعاد منصور إلى وحدته:

إنه الآن تعدى الخمسين من عمره.. وكل ما يريده هو أن يرتاح.. لا يريد شيئا إلا أن يرتاح.. وقد وجد أن أعلى درجات الراحة لا يجدها إلا وبجانبه نوال..

إن نوال تعمل معه فى مكتبه منذ أكثر من عشرين عاما.. وقد بدأت كسكرتيرة له.. ثم ارتقى بها إلى مديرة لمكتبه.. وأصبح يعتمد عليها كل الاعتماد.. لقد أصبحت على علم بكل تفاصيل العمل.. وبكل أسراره.. وبكل ما له وما عليه.. حتى إنه رفع مرتبها وهى مديرة مكتب إلى أعلى مرتب مدير عام الشركة.. وهذا ما يحدث فى كل البلاد المتقدمة.. يرتفع مرتب مدير المكتب إلى مرتب أكبر الموظفين.. لأن مدير المكتب هو فى الواقع عقل وتصرفات صاحب الشركة..

ورغم اعتماده عليها كل هذا الاعتماد فلم تقيم بينهما أبدا أى علاقة خاصة.. لا من قريب ولا من بعيد.. ربما لأنه تعود منذ البداية أن يفصل بين حياته فى عمله وحياته الخاصة.. ونوال قطعة من حياة العمل.. وهى ليست جميلة جمالا زاعقا ولا حتى جمالا يجذب العين.. ولكنها مريحة.. شكلها مريح.. وكلامها مريح.. وتصرفاتها مريحة.. وهى راحة تنطلق من ذكائها.. ذكاء متخصص فى توفير الراحة حتى مع أصعب مشاكل العمل..

وقد بدأ فى هذه المرحلة من عمره يحتاج إليها أكثر.. إنه يستدعيها كثيرا لتجلس معه ولم يعد حديثه معها قاصرا على

العمل.. بل كان يحدثها عن كل دنياه ويصل إلى حد الإباحة بأسرار حياته الخاصة وكل أخطائه.. كأنها البئر الذى يلقى فيه بكل همومه حتى يرتاح.. بل إنه من شدة حاجته إليها بدأ يدعوها إلى بيته لتقضى سهرات معه.. ولم يكن بينهما أى التصاق أو تلامس عشاق.. إن كل ما يجرى بينهما هو حديث لا ينتهى.. إنه أوسع حديث يجمعه بإنسان لأن يشمل العمل بكل أسراره والحياة الخاصة بكل أسرارها..

وطرأت على عقله الكومبيوتر فكرة..

لماذا لا يتزوج نوال..

إنه زواج يضمن له مصير شركته من بعده.. فهى الوحيدة التى تعلم كيف تديرها أو على الاقل تفهم فى إدارتها.. ولعله ينجب منها ولدا.. إنها المرة الثانية التى يتمنى فيها إنجاب ولد.. كانت المرة الأولى عندما تزوج سهام.. وقد تمنى أن ينجب منها ابنا يرث أموال وشركات أبيها..

وهذه المرة الثانية .. فإنه لو أنجب منها فيستطيع هو وهى أن يجعلا من ابنهما رجل أعمال عبقريا ناجحا يتولى أمر شركته.. والأهم من كل ذلك أنه سيعيش معها الراحة التى وفرتها له منذ التقى بها..

وقال لنفسه.. إن نوال تحبه.. لا شك أنها تحبه.. ليس مجرد العمل هو الذى جمعها به طوال هذه السنوات.. إنه الحب.. بل إنها لم تتزوج حتى الان رغم أنها اصبحت فى الثانية والثلاثين

من عمرها.. لماذا لم تتزوج.. لأنها تحبه.. ولكنه كان أعجز من أن يكتشف هذا الحب.. كانت مسئولية العمل تجرده من لمحات الحب الذى يعيش مع نوال.. وقال لها وهو فى أرقى مستويات إحساسه وعواطفه:

- ما رأيك .. هل نتزوج؟

وابتسمت ابتسامتها المريحة الهادئة وقالت:

- أى رقم سأحمله بين الزوجات؟

وقال وهو يشد يدها إلى يده:

- ستكونين الزوجة رقم واحد.. كل ما مضى لم يكن لى فيه زوجات.. كن نزوات.. أو تجارب.. أو أخطاء.. لم يكن لى زوجة حتى اليوم.. وستكونين أنت الأولى..

وقالت من خلال ابتسامتها:

- لا .. سأكون الزوجة رقم سبعة.. وأنا أفضل أن يكون لى فى حياتك مكان لم يحتله أحد قبلى ولن يحتله أحد بعدى.. وإنى مصرة أن أكون معك دائما.. ولكن فى هذا المكان الذى أنفرد فيه طول حياتى.. مكانى ملتصقة بك فى العمل..

وضغط على يدها وهى فى يده وقال متوسلا:

- إنى فى حاجة إليك بقية حياتى.. بل إنى بدأت أفكر بعد الزواج فى أن تكون شركاتى كلها ملكا لنا نحن الاثنين.. وننجب ابنا يتولى حملها بعدنا.. لم يعد لى أمل إلا أملى فيك.. أملى أن

تعطينى راحة أوسع من الراحة التى عشت فيها معك حتى اليوم..

وقالت وجفناها يرتعشان فوق عينيها:- اترك لى أياما أفكر فيها..

وقال وهو يحتضنها بابتسامة:

- سنلتقى غدا..

وقالت ضاحكة:

- إنه لقاء عمل..

وقال متوسلا:

- لقد جمعنا بين العمل والحب..

وقامت.. وانحنت تقبله لأول مرة.. وكانت قبلة على جبينه.. ثم جرت خارجة من البيت كأنها صبية صغيرة..

وتمدد فوق مقعده مرتاحا فى انتظار نوال غدا..

استغفر الله..

لقد أصبح عادل الهجرسى يحس كأنه فيلسوف اجتماعى فقط.. أصبح يفلسف كل ما يحيط به من مظاهر الحياة بل أصبح يضع تفسيرا فلسفيا لكل فرد من أفراد المجتمع الذى يحيط به.. لقد أرتفع فوق القمة وأصبح يطل على الدنيا من تحته، ويرى فيها مالم يكن يراه وهو يعيش فيها كمجرد واحد من أهل هذه الدينا..

وكان من بين المبادىء الفلسفية التى اكتشفها.. هو أن الفرد إذا غير عادة من عادات معيشته فإنه يجب أن يغير معها كل المجتمع الذى يعيش فيه.. فمثلا.. إذا قرر فرد يدخن السجائر أن يقلع عن التدخين فإنه يجد نفسه يبتعد عن كل المجتمع الذى كان يحيط به.. وهو مجتمع كل أفراده يدخنون.. وليس هو الذى اختار هذا المجتمع ولكنه وجد نفسه فيه منذ بدأ يدخن.. فإن التدخين ليس من غرائز الإنسان التى ولد بها وتشمل كل الناس.. ولكنه عادة مكتسبة من ناحية من نواحى المجتمع.. وقد يكون قد بدأ التدخين تقليدا لوالده حتى يصل مثله الى مظهر من مظاهر العظمة والقوة.. أو تقليدا لأصدقائه الذين

سبقوه فى التدخين حتى يشاركهم فى استكمال مظاهر الرجولة المبكرة.. ويجد هذا الفرد نفسه يعيش وسط مجتمع كله من المدخنين.. فإذا قاوم التدخين وأقلع عنه وجد نفسه غريبا عن هذا المجتمع.. بل قد يجد نفسه غريبا حتى عن أبيه الذى لا يزال يدخن.. إنها غربة تفقده التجاوب الكامل مع عقلية ومظاهر المجتمع المدخن.. وهو يرى بعض الأفراد من غير المدخنين يترددون على مجتمع التدخين.. ولكنه يراهم كلهم كأنهم غرباء لا يتحملون طويلا هذا المجتمع.. حتى بين الأخ وأخيه.. فقد يكون أحدهما يدخن والآخر لايدخن فإذا الواقع يفرض التباعد بينهما وكأن كلا منهما يعيش فى دنيا لا يعيش فيها الآخر.. وهو تباعد بين شخصية كل منهما وأخلاقه وأهدافه وأسلوبه فى الحياة..

وقد وصلت به فلسفته الى محاولة اكتشاف السر فى تعود التدخين رغم أنه ليس من معالم غريزة الإنسان، إنما هو مجرد اكتساب لعادة من العادات.. واكتشف بما أقنع نفسه به.. وهو أن التدخين هو تعود على تقاليد مجتمعات أجنبية خارجة عن المجتمع المصرى.. فإن التدخين لم ينتشر كل هذا الانتشار فى المجتمعات المصرية إلا بعد الاحتلال البريطانى.. وأصبح يمثل مظهرا من مظاهر قوة الانجليزى.. واندفع أفراد المجتمع المصرى يحاولون اكتساب هذا المظهر بأن يدخنوا كما يدخن الانجليز.. وقبل الاحتلال البريطانى كان المنتشر فى المجتمع المصرى هو تدخين الشيشة.. لأن الشيشة كانت تمثل المجتمع

التركى.. وكانت تركيا هى التى تحتل مصر والشيشة تعتبر مظهرا من مظاهر العظمة والقوة التركية، ولذلك اندفع المجتمع المصرى إلى محاولة اكتساب هذا المظهر بتدخين الشيشة كما يدخنها الاتراك.. وحتى الجوزة لابد أنها جاءت الى مصر من الخارج، فليس فى كل ما خلفه قدماء المصريين من آثار ما يثبت أنهم كانوا يعرفون الجوزة، وأن تدخينها كان منتشرا بينهم كانتشارها داخل المجتمع المصرى هذه الأيام..

وعادل الهجرسى يمكن أن يتحدث طويلا، ويعرض تفاصيل فلسفته حول انتشار التدخين فى مصر.. ولكن ليس المهم هو التدخين.. وهو نفسه يفرط فى تدخين السجائر والشيشة والجوزة ولا يخطر على باله أبدا أن يقلع عن هذا التدخين.. إنما المهم هو تعود تعاطى الخمر..

وهو يذكر إنه شرب الكأس الأولى وهو طالب فى الجامعة وكان يصحبه صديقه نبيل.. أو بلبل كما تعود أن يناديه.. وكان قد دعاه صديق أكبر منهما سنا إلى بيته وقدم لهما الكأس مؤكدا أنه تفتح شهيتهما قبل تناول العشاء.. وقد فتحت الكأس شهيتهما فعلا.. وقضيا مع صديقهما سهرة لا تكف فيها الضحكات.. ولم تكن الضحكات هى كل شىء، فقد بدأوا من ليلتها يتبادلون الأفكار.. وكانت أفكارا تعلن عن عبقرية كأنها كانت مدفونة.. وعن جرأة في مواجهة الواقع الذى كانا يعيشون مستسلمين له..

وقد انتهى عادل ليلتها وهو ليس مخمورا. ولا يمكن اعتباره سكرانا.. إنه يسير طريقه فى خطوات عادية ويقول كلاما ليس فيه أى كلمة شاذة، أو كلمة لا يقصدها ولا يعيها..

ومن يومها أصبح هو وصديقه بلبل يتعمدان البحث عن الكأس.. ولم يتعودا أن يبحثا عنها كل ليلة أو يجداها فى أى ليلة يريدانها.. وكان بلبل تغلبه شهوته أحيانا فيمد يده إلى مخبأ زجاجات الخمر الذى يحتفظ بها أبوه فى البيت ويحرم ابنه منها لأنه لايزال طالبا يذاكر دروسه.. يصب بلبل كأسا له وكأسا لصديقه عادل.. ثم يعودان الى المذاكرة.. كأس واحدة لكل منهما.. كأنهما يريدان مذاق الخمر لا مفعولها..

إلى أن تخرجا كلاهما فى الجامعة.. وتخرجا بامتياز ووجد كل منهما عملا مشرفا مجديا.. وقد أصبحا يجتمعان كل ليلة فى بيت بلبل وزجاجة الخمر بينهما.. أو يكونان مدعوين إلى صديق يقدم لهما الزجاجة أيضا.. إنهما ودون تعمد أصبحا يختاران تلقائيا الأصدقاء الذى يقبلون قضاء السهرة معهم وكل منهم يقدم الزجاجة.. وعادل نفسه لم يكن يستقبل بلبل فى البيت ولا يدعو اليه الأصدقاء، فليس فى بيته زجاجات، وأبوه يحرم بشدة تقديمها، ويعتبر مجرد وجودها رجساً من عمل الشيطان.. وأصبح كلما أحس بواجب المجاملة ورد الجميل أن يدعو أصدقاءه إلى كأس فى أحد المحال أو الفنادق العامة.. وطبعا لم

يعد عادل أو بلبل يكتفيان بكأس واحدة.. ولكنهما لم يصلا الى منتهى الإفراط.. كأسان أو على الأكثر ثلاثا.. إنهما لم يسرفا فى تعود الاستسلام للخمر حتى يفقد أحدهما وعيه واتزانه..

وكانت شهيرة أخت بلبل تشاركهما جلسات الليالى.. وكانت هى أيضا وهى لاتزال عذراء تشرب كأسا أو اثنين.. إن الكؤوس معترف بها فى تقاليد هذه العائلة..

وقد جمع الحب بين عادل وشهيرة.. وربما كان حبهما لا علاقة له بالكأس أو لم تدفعهما الكأس اليه.. ولكنهما كانا أشد احساس بهذا الحب، وأشد جرأة فى التعبير عنه بعد أن يرتشفا الكأس الأولى..

وقد تزوجا..

وأصبح بيتهما لا يخلو أبدا من الزجاجة، والكأس تجمعهما كل ليلة.. وقد يكون معهما بلبل أو يكونان قد وجها الدعوة لبعض الأصدقاء.. وأغلب الليالى وحدهما.. والزجاجة والكأس دائما تشاركان فى إحياء سهرتهما.. إن كل مظاهر وأحاسيس الحب بينهما لا تتجمع وتتركز إلا مع الكأس.. بل إن شهوة كل منهما إلى الآخر لا تنطلق إلا مع الكأس.. حتى أنهما تعودا ألا يذوق كل منهما قبلة الآخر إلا ومعهما ما تتركه الكأس من رائحة تنطلق الى الشفاه.. كأن كلا منهما يقبل كأسا فى شفتى الاخر.. كأس معطرة برائحة الويسكى، أو الكونياك، أو النبيذ، أو الجين.. وهذا لم يغير من طبيعتهما التى لاتتركهما يفرطان فى تناول الكأس.. فقط كأسان لكل منهما ويصلان أحيانا الى ثلاث كؤوس

أو إلى أربع.. دون أن يصلا إلى أن يكون أحدهما فى حالة هذيان السكارى..

وقد مرت السنوات وهو فى منتهى السعادة بزوجته وبنجاحه فى عمله .. إنه يبنى نجاحه بسرعة.. وكل فكره أصبح مركزا فى تحقيق مزيد من النجاح.. ثم وجد نفسه لا ينتظر ساعات المساء التى تجمعه خلالها الكأس مع زوجته.. إنه أحيانا ينسى الكأس إلى أن تذكره بها زوجته شهيرة وتدعوه إليها صارخة كأنه قد نساها هى شخصيا.. ويعود ويلتقط الكأس، ولكن ليس فى منتهى الاقبال الذى تعوده.. بدأ يحس كأن الكأس تعكر تركيز فكره على مشروعاته التى يحقق بها نجاحه، والتى أصبحت تأخذ كل عقله فى كل ساعات يومه.. بل إنه أصبح يضيق بجلسات الكأس مع صديقه بلبل، ومع بقية أصدقاء الكأس.. أصبح يعانى وهو جالس معهم فى إبعاد فكره عن مشروعات نجاحه حتى يتفرغ للاشتراك معهم في أحاديثهم المنطلقة بلا مسئولية.. وأصبح يحس بضحكاتهم كأنها قطع من الحجارة يقذفونه بها حتى يضحك معهم.. وحتى لو ضحك لايحس بمتعة الضحك كاملة كما كان يحس بها.. ورغم ذلك فهو لايزال يرفع الكأس الى شفتيه كأنه يحترم تقاليد عائلية ثابتة لا يستطيع أن يخل بها..

إلى أن دهمته حالة أخرى بدأت تسيطر عليه.. فإن استمرار نجاحه فى عمله بدأ يشعره بفضل الله عليه.. وكلما نجح فى

تحقيق مشروع أحس بدافع قوى إلى أن يصلى شكرا لله.. ثم بدأ يسائل نفسه عن اهماله أداء فريضة الصلاة.. لماذا لا يصلى دائما وكل الصلوات الخمس.. إن كل أفراد عائلته يؤدون الصلاة كاملة.. أبوه يصلى.. وأمه تصلى.. وأخوه الأكبر يصلى.. وأخته تصلى منذ كانت طفلة ولاتزال متمسكة بأداء الصلاة بعد أن تزوجت وأنجبت.. كان هو وحده فى العائلة كلها الذى لايواظب على الصلاة.. كان يدعى أحيانا أداء الصلاة إرضاء لوالده.. ولكنه لا يشغل نفسه أبدا بدوافع أداء الصلاة.. كأنه الكافر الوحيد بين أفراد العائلة.. ربما كانت هذه إحدى النوازع التى كانت تسيطر على صباه وشبابه.. نوازع الانطلاق بالحرية حتى حرية التخلص من نوازع الدين.. ولكنه الآن لا تسيطر عليه هذه النوازع.. فلماذا لا يتخلص منها، ويبدأ فى أداء كل فروض الصلاة.. إنه يؤدى فرض الصيام فى رمضان بحكم التعود، فلماذا لايعود نفسه أيضا على الصلاة ويبدأ يؤدى فروض الصلاة فعلا.. بل أن دوافعه الى الصلاة أصبحت أقوى من دوافعه الى صيام رمضان.. إنه يصوم بحكم التعود، ولكنه يصلى بحكم وصوله إلى استكمال إيمانه بفضل الله عليه وحاجته إليه..

وكان يؤدى فروض الصلاة فى البيت.. وزوجته شهيرة تنظر الى ماجدّ عليه وهى ساخرة.. لقد عرفته وأحبته وتزوجته وهو لا يصلى.. فماذا جدّ عليه.. لعله استجاب لنوازع شاذة لمظهر من مظاهر الجنون.. ولم يقلقها شذوذه أو جنونه فإنه

لاشىء ينقص من حولها.. وهو لا يحاول أن يفرض عليها أن تبدأ هى الأخرى فى أداء فروض الصلاة.. إنه يتركها إلى أن يدهمها هى الأخرى دافع الصلاة.. لقد عرفته وأحبته وتزوجته، وكلاهما لا يصلى، ولكنه أصبح يصلى وربما دفعها الحب إلى أن تصلى معه حتى لاتتركه وحده فى صلاته.. حتى تقف معه بين يدى الله ليباركهما معا ويشملهما برضائه سبحانه وتعالى وهما معا.. هكذا كان يتمنى.. ولكن لاشئ يدفعها الى تحقيق أمنيته بأن تصلى معه.. إنها ليست فى حاجة إلى شىء من الله، ولا ينقصها شىء منه هو شخصيا..

حتى الكأس لم تنقصها..

لا تزال الكأس تجمعها بزوجها كل مساء.. وكل ما تغير فيه أنه لم يعد يقرب الكأس إلا بعد أن يصلى صلاة العشاء مكتفيا بأن يفرض على نفسه الأمر بأن لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى.. إنه لايقرب الصلاة بعد أن يبلل شفتيه بالخمر حتى ولو لم يكن قد أصبح سكران، ولذلك فهو لا يقرب الكأس إلا بعد أن يؤدى كل فروض الصلاة..

ولكنه يزداد نفورا من الكأس.. بينما شهيرة تزداد اقبالا على الكأس حتى أصبحت كأنها تغرق نفسها فيها.. إلى أن خطر له خاطر آخر وهو جالس معها وأمام كل منهما كأسه وقال مبتسما وهو يحتضنها بعينين تبرقان بحبه:

- شهيرة.. إننا نعيش فى بيت واحد.. وننام فى فراش واحد.. وكل ما فى الحياة نعيشه معا.. فلماذا لا نشرب من كأس واحدة..

وقالت فى دهشة كأنها لاتفهم وكأسها فى يدها:

- ماذا تقصد؟

وقال وهو يلفها بمزيد من الحب:

- أقصد أن يكون لنا نحن الاثنين كأس واحدة.. أنت تأخذين رشفة من الكأس وأنا رشفة من نفس الكأس.. حتى لايكون لكل منا كأس تبعده عن الآخر.. إن رشفة الكأس كأنها همسة.. فلتجمعنا الهمسات فى كأس واحدة..

وأطلقت شهيرة ضحكة عالية كأنها وجدت لعبة جديدة تلعب بها.. وأبعدت كأسها من أمامها، ومدت يدها إلى كأسه ورفعتها الى شفتيها وارتشفتها.. ثم مدت يدها بها إلى شفتيه ليرتشف هو الاخر رشفة منها.

وقد كان يظن أن هذه الفكرة ستخفف عنها ثقل الخمر.. فقد أصبح هو الذى يمسك بالكأس ويرتشف منها.. وقد يدعى الارتشاف دون أن يرتشف منها ولا قطرة.. ثم يمدها إلى شفتيها.. ويسحبها قبل أن تتمادى فى ارتشافها.. ثم يعلن النهاية فى الوقت الذى يحدده ويدعوها إلى الفراش..

ولكن الفكرة لم تحقق ما يريد.. فلا هى أصبحت تخفف من شرب الخمر.. ولا هو أصبح مستريحا من الخمر.. رغم أنه لم يعد لهما سوى كأس واحدة.. إنها تمد يدها إلى الكأس قبل أن يمد يده إليها.. وتسكب فى جوفها ما تريد دون أن تتركه يتحكم

فيما تريده.. ثم تعطيه الكأس وقد لا تنتظر حتى يرشف منها وتعود وتأخذها إلى شفتيها.. أو قد تصل الكأس اليه، ويكتفى بأن يبلل شفتيه بما فيها دون أن يسكبها فى بطنه.. ويظل محتفظا بها فى يده مدعيا أنه لايزال يشرب فلا تمهله طويلا وتشد الكأس إلى شفتيها.. إنها مدمنة..

ولا يمكنه أن يخفف من ادمانها..

وأخيرا ثار على نفسه لتردده وتحايله فى مايريده.. وهو يريد أن يقلع عن شرب الخمر.. أن يحرمها ولو على نفسه وحده.. حتى هذه الرشفات من الكأس التى يبلل بها شفتيه أصبحت تتعبه كأنها رشفات من النار تشعل أمعاءه وتهرى معدته، ثم ترتفع الى رأسه وتصيبها بصداع مؤلم عنيف يستمر حتى صباح اليوم التالى.. إنه لم يعد يحتمل شرب الخمر.. إلى أن كانت إحدى الأمسيات وجاءت زوجته شهيرة بالزجاجة والكأس ووضعتها بينهما وهى تجلس بجانبه.. ومد يده والتقط الكأس ثم ألقى بها على الأرض بعنف.. وتحطمت الكأس.. وهو يصرخ:

- لن أترك الكأس تصل إلى شفتى.. خلاص .. لن أشرب الخمر..

ونظرت إليه شهيرة فى ذهول .. ثم تخلصت من ذهولها، وقالت فى برود:

- أنت حر .. وأنا حرة..

ثم مدت يدها والتقطت كأسا أخرى صبت فيها الخمر ورفعتها إلى شفتيها وشربت كل ما فيها فى جرعة واحدة.. كأنها تغيظه وتتحداه..

وقضيا هذه الليلة وهو جالس معها صامتا يقلب فيما يصل الى يده من صحف أو أوراق ويطل بعينيه على السطور دون أن يقرأ منها شيئا.. أو يفتح الراديو يحاول أن يستمع اليه.. أو التليفزيون يحاول أن يتتبع بعينيه ما يعرض أمامه دون أن يرى شيئا.. وهى بجانبه صامتة أيضا تملأ الكأس ثم تصبها فى جوفها إلى أن أكتفت فقامت مبتعدة عنه إلى الفراش وهى لاتزال صامتة.. ولعله أحس بأنه يجب أن يخفف عنها صدمتها بأن تركها تشرب الخمر وحدها.. فقام ولحق بها على الفراش ومد ذراعه يحتضنها.. ولكن ما أن هم بأن يضع شفتيه على شفتيها حتى دهمته الرائحة المنطلقة منها.. رائحة الخمر.. وقد كان لايشم هذه الرائحة وهو مخمور مثلها تنطلق منه هو أيضا نفس الرائحة.. أما الليلة وهو لم يشرب الخمر فلم يستطيع تحمل رائحته.. إنه يحس بها كزوبعة كريهة تعصف به.. وهى أيضا.. أنها تحس بشفتيه كأنهما شفاه ميت فقد الحياة..

ومضت الأيام مع مزيد من التباعد حتى أصبحت شهيرة تقضى أمسياتها وحدها مع الكأس، بينما عادل وحده فى الغرفة الأخرى يقرأ أو يشاهد التليفزيون.. وهو يتمنى كأنه يحلم بأن تصدر الحكومة المصرية أمرا بمنع الخمر وتحريم وجوده تطبيقا لأوامر الاسلام، ولكن فى مصر أديان أخرى لا تحرم شرب الخمر.. ومجرد اصدار هذا الأمر بالتحريم لا يعنى ألا يشرب وحده، ولكنه يفرض صفة اجتماعية تقلل من الاقبال على شرب الخمر، وتحريم الحشيش لم يقض عليه، ولكنه أقام صفة

اجتماعية جعلت مجال الحشيش ضيقا على الأقل، جعلت أى فرد ينكر أنه حشاش حتى لو كان حشاشا.. وقد يؤدى تحريم الخمر أيضا الى أن يصبح شربها سرا يختبىء به الشاربون وليس مظهرا علنيا يتباهى به الشاربون.. ولكن المشكلة أساسا هى أن الدول المصدرة للخمور هى دول راقية، وأى دولة أخرى تحرم الخمر تدخل فى معركة أقرب إلى الحرب، وقد سبق أن حرمت أمريكا الخمر فدخلت فى معارك استمرت سنوات مع باعة الخمر تساندهم كل الدول التى تصنع الخمر وتصدره. وانتهت هذه المعارك بهزيمة الدولة الأمريكية وعادت إلى إباحة الخمر.. لا أمل فى أن يتمنى بأن يصدر أمر بتحريم الخمر حتى يفرضه على زوجته شهيرة..

إلى أن فوجىء ذات ليلة باختفاء زوجته.. إنها ليست فى غرفة الجلوس تشرب كأسها.. ليست فى البيت كله.. وكاد يجن.. أين ذهبت.. لا يمكن أن تكون قد انتحرت بعد أن هجر ليالى الكأس معها.. وأمسك بالتليفون وأخذ يسأل عنها لدى كل من تعرفهم الى أن وجدها لدى أخيها.. إنها معه.. تشرب معه.. وكانت حجتها بسيطة.. إنها لا تستطيع أن تستسلم للانفراد طول عمرها بكأسها.. وأخوها يشرب فقررت أن تعيش وهى تشرب معه..

وقد استسلم. وإن كان قد حاول أن يقنع أخاها بأن يأتى الى زيارته فى البيت، ويشارك زوجته الكأس هنا لا هناك.. ولكن

أخاها قال ضاحكا:

- إنى لا اطيق أن أجلس وفى يدى كأسا وأمامى واحد يرفض الكأس ويبحلق فى كأنه يتمنى أن يخنقنى حتى لا أصب الكأس فى زورى..

وأصبحت هذه هى حياتهما.. تذهب كل ليلة لتشرب الكأس مع أخيها.. وطبعا ليس أخوها دائما وحده فكثير من اصدقائه يجتمعون كل ليلة فى سهرة خمر.. ولعل زوجته شهيرة تنضم اليهم وتقضى السهرة بينهم وهى سكرانة.. ترى ماذا يقال وماذا يحدث.. والأوهام تلهب أعصاب الزوج المستسلم الضعيف.. وقد بدأ عادل يناقش نفسه.. إنه يحب زوجته ويريدها، فإذا كانت الكأس هى أقوى ما يجمعهما، فلماذا يهجر الكأس.. لماذا لا يعود ويشرب الخمر حتى يحتفظ بحبه.. إن الاسلام لا يمكن أن يقسو على المؤمنين به إلى أن يحرمهم من الحب الشرعى حتى لو كان من المكتوب عليهم أن يتحدوا التقاليد، ويشربوا الخمر..

وبدأ فى إحدى الليالى يشرب.. كان وحده.. زوجته تركت البيت إلى أخيها كما تعودت أخيرا.. وقد جاء بزجاجة الخمر ومعها الكأس، وجلس الجلسة التى يجلسها مع زوجته وهى تشاركه الخمر.. بل أنه جاء بكأس أخرى ووضعها على المائدة كأنها كأس زوجته وفى انتظار أن ترشف منها.. وهو يبتسم ساخرا بينه وبين نفسه.. لقد وصل إلى حد أن أصبح يجلس وحده ويشرب وحده.. مع أنه لايريد من الكأس إلا أن تجمعه

بزوجته.. ولكن لليلة واحدة يفرض على نفسه فيها العودة إلى شرب الخمر.. وغدا سيشربها معها.. لن يتركها تغادر البيت بحثا عن من يصاحبها الكأس، ستجمع الكأس بينه وبينها وحدهما.. فى الغرفة التى كانا يقضيان فيها ساعة يعدان نفسيهما للانتقال إلى الجنة التى تجمعهما فوق فراشهما..

ورفع الكأس وشرب أول رشفة.. وأحس كأنه يشرب المر.. لم يعد يحس بأى متعة فى الكأس.. وشرب الرشفة الثانية، وكان النار قد اشتعلت فى معدته ومصارينه.. ولم يعد يحتمل بل أنه بدأ فى الصراخ وهو يتلوى على مقعده وهو يضغط بيديه على معدته ومصارينه.. ولم يعد يجرؤ على مجرد التفكير فى الرشفة الثالثة.. وليعترف بالحقيقة.. إنه لم يقلع عن شرب الخمر لمجرد التمسك والصلاح، ولا تمسكا بتعاليم الدين الاسلامى.. إنه أقلع عن شرب الخمر لأنه لم يعد يحتمل شربها.. إنه مريض ولم تعد أمعاؤه تحتمل تلقى الخمر.. إنه لم يهرب من الخمر ، ولكنه يهرب من الآلام التى أصبحت الخمر تصبها على معدته وأمعائه، وتشتد حتى ترتفع إلى عقله ويحس بأن رأسه يكاد ينفجر من جحيم الصداع.. هذه هى الحقيقة.. لقد هجر شرب الخمر لأن معدته لم تعد تحتمل شربه.. إنه لم يتطور فى إيمانه بتعاليم الدين وفى تمسكه بشعائر الفضيلة، ولكن صحته هى التى تطورت وتركته وهو لا يحتمل أن يشرب الخمر.. معدته ومصارينه هما اللذان فرضا عليه الامتناع عن شرب الخمر.. وليس عقله هو الذى ألح عليه حتى أخذه إلى دنيا الإيمان بتعاليم

الدين وإلى دنيا الفضيلة..

إذن فليس من حقه أن يلوم زوجته شهيرة لأنها لا تريد أن تشاركه فى الامتناع عن شرب الخمر.. إنها ليست مريضة مثله.. والخمر لا تسبب لها الآلام التى تسببها له.. إنها لاتزال تجد فى الخمر متعة الطيران إلى أعلى بعيدا عن هموم الدنيا.. ليس من حقه أن يلومها اذا لم تمتنع معه عن شرب الخمر.. إن الأسباب التى دفعته إلى التوبة عن الخمر لا يستطيع أن يفرضها على زوجته شهيرة.. لا يستطيع أن يفرض عليها هى الأخرى أن تمرض بمعدتها ومصارينها حتى لا تقبل الخمر.. ولكن كان يمكنها أن تكتشف انه مريض وتراعى واجبها بعد أن أصبح مريضا فتمتنع هى الأخرى عن شرب الخمر حتى لاتتركه وحيدا مع المرض.. ان واجب الزوجة الكاملة أن تراعي حالة زوجها وتعيش فى حدود ماتستطيعه حالته.. إنها ليست مريضة ولكن زوجها مريض وهذا يكفى لتبتعد عن الكأس.. ولكن شهيرة ليست زوجة كاملة.. وهو يحبها رغم أنها ليست كاملة..

وهذه الخواطر التى تزحف عليه ويقضى ساعاته فى مناقشتها جعلته يتحمل أكثر، الاستسلام لكل تصرفات زوجته شهيرة.. وقد أحس أنه أصبح يعتمد على بركة الله وحده فى تحمل هذا الاستسلام.. ووجد نفسه يتقرب إلى الله بأداء المزيد من فروض الدين.. أصبح يبالغ فى أداء الصلاة ويصلى التراويح.. ويحرص على صلاة الجماعة فى المساجد.. وأحيانا

تطوف على شفتيه ابتسامة ساخرة هو يسأل نفسه.. هل كانت زوجته شهيرة يمكن أن تصلى معه..إنها طوال عمرها كله لم تتجه إلى الله بركعة واحدة.. وهى ليست كافرة ولكن لعلها أقنعت نفسها بأن الله فرض الصلاة على الغلابة الجهلة.. وهى ليست من الغلابة الجهلة.. إنها تصل إلى الله بالمناقشة الواعية التى تفرض الحلال.. وتصل اليه بأن تمتع نفسها بالحياة لأنه هو الذى خلقها ووضعها فى هذه الحياة..

إلى أن فوجئ فى إحدى الأمسيات بزوجته وقد جلست حيث تعودا أيام زمان أن يقضيا أمسياتهما، وقد وضعت أمامها زجاجة الخمر وكأسا واحدة.. كأنها استسلمت هى الأخرى أنها لن تجد فى بيتها من يستحق كأسا أخرى.. ووقف أمامها كأنه مذهول بهذه المفاجأة.. لماذا لم تذهب هذه الليلة لتشرب الكأس مع أخيها.. ونظرت إليه نظرة عادية وبين شفتيها ابتسامة كأنها ترتب بها على خده.. كأن ليس هناك جديد تحمله هذه المفاجأة، وقالت من خلال إبتسامتها:

ـ اجلس ياعادل.. واسمعنى.. لقر مرت الآن شهور ولم نعد نستطيع أن يعود كل منا إلى الآخر كما كنا.. لذلك فإنى أجد إنه من الأفضل أن تكون لكل منا حياته.. أى أن ننفصل.. ولاتكون زوجى، ولا أكون زوجتك..

وصاح مذهولا:

ـ ماذا تقصدين..

قالت وهى لاتزال تبتسم

ـ أقصد الطلاق.. وكل منا يصبح حرا فى بناء حياته من جديد..

وقال فى ضعف يهز صوته:

ـ ولكننا نعيش أحرارا بلا طلاق.. أنت حرة فى كل حياتك، وأنا حر رغم أننا زوجان..

وقالت فى حدة كأنها تهدد:

ـ إن مجرد أن نعيش فى بيت واحد لايعتبر زواجا.. إننا مطلقان داخل البيت فلنجعلها حياة طبيعية ونعيش الطلاق كله دون أن يجمعنا بيت.. إنى مصممة على الطلاق، ولاتجعلنى ألجأ إلى وسائل أخرى..

وأحس بالثورة تزحف عليه وتثير أعصابه وصرخ فى وجهها:

ـ لم يكن يجمعنا إلا الحب الذى عشناه منذ صبانا.. فما دام الحب قد تخلى عنك فأنت طالق.. طالق..طالق..

وتركها خارجا بعد أن مد يده ورفع زجاجة الخمر من أمامها وألقى بها على الأرض وحطمها.. ونظرت اليه شهيرة ساخرة وتتبعته حتى اختفى، ثم فتحت الدولاب وأخرجت زجاجة أخرى.. وعادت تشرب..

وقد ذهب وأقام مع عائلته وتركها تعيش وحدها فى بيتهما..

إنه يعتبر أنه طلقها فعلا، ولكنه لم يتخذ أى إجراء رسمى لتسجيل وإعلان هذا الطلاق.. وهى أيضا لم تطالب بإجراءات إعلان الطلاق.. يكفى أن كلا منهما قد أصبح يعيش وحدة ليكونا مطلقين.. وهو يعيش معها فعلا طوال كل يوم.. لايكف عن التفكير فيها وتخيل تصرفاتها.. ترى كيف تعيش وكيف تفكر وهو بعيد عنها.. ربما كانت قد طلبت الطلاق لأنها تريد أن تتزوج واحدا من شلة الخمر التى تجمعها فى السهر مع أخيها.. مستحيل انها لاتستطيع أن تتزوج، فهو لم يتخذ إجراءات الطلاق وإن كان يعيشان كمطلقين.. وعلى كل حال.. فإذا كان من حقها أن تبحث عن زوج آخر فهو من حقه هو الآخر أن يبحث عن زوجة أخرى.. ولايكفى أن تكون هى الأخرى على خلق وشريفة ومن عائلة محترمة..و..و.. إلى آخر اللائحة التى تحدد عملية البحث عن زوجة.. إنما يجب أن تكون معه فى كل تفاصيل الحياة.. حتى يمكن أن تجمعهما حياة فى هذه الدنيا فهو الآن لايشرب الخمر فيجب أن تكون هى الأخرى لاتشرب.. وهو يعانى ضعفا فى معدته ومصارينه، فيجب أن تكون لها معدة ومصارين تعانى هذا الضعف.. على الأقل حتى يعيشا داخل أصناف واحدة من الأغذية.. والأهم من ذلك أنه الآن فى الخامسة والأربعين من عمرة، فيجب أن تكون هى فى الأربعين على الأقل.. فإن الزواج لاينجح إلا اذا جمع بين اثنين من جيل واحد.. أى أنه يجب أن يتزوج من جيل الأربعين..

وقد مضت شهور طويلة وهو يعيش وحدته فى بيت عائلته دون أن يمضى يوما دون أن يقضيه مفكرا فيها ومتخيلا حياته بعيدا عنها.. إنه يحبها.. ولا يستطيع أن يطلق حبها حتى لو طلقها هى شخصيا.. وكان فى هذه الشهور قد بدأ يحس باسترداده لكامل قوة كيانه.. حتى قوة معدته ومصارينه.. والفضل طبعا لرعاية أمه التى كانت مشرفة عل كل تفاصيل حياته، بل وعلى كل لقمة تدخل إلى فمه ويأكلها.. وكانت مؤمنة بأن أقوى ما فى الطب هو الاستسلام للطبيعة.. حتى أنها منذ يومين وضعت أمامه لقمة ساندويتش من الفسيخ.. مادام خلق الله قد اكتشفوا الفسيخ منذ الاف السنين فلاشك أن فى الفسيخ فوائد دفعت خلق الله إلى اكتشافه فلماذا لايجرب أكل الفسيخ.. وقد أكل ساندويتش الفسيخ مرغما تحت إلحاح أمه.. ولكن من العجيب أنه أحس بالراحة فعلا بعد أن أكل الفسيخ.. أحس كأن معدته ومصارينه قد استردتا كل قواها كأنها كانت تلعب لعبة رياضية مع الفسيخ.. إلى أن سأل نفسه يوما.. لماذا لايجرب.. وليعترف بالواقع.. لقد حرم على نفسه شرب الخمر لأنه كان قد أصبح لايحتملها فى بطنه.. فليجرب .. ربما يستطيع الآن أن يتحملها.. وفعلا ذهب واشترى زجاجة من الخمر.. وأعد الكأس.. وردد فى منتهى الأخلاص.. استغفر الله.. استغفر الله.. استغفر الله.. ثم صب الكأس بين شفتيه.. عجيبة.. إنه لايحس بأى قلق ولا أى ألم.. إنه يستطيع الان أن يشرب.. أن يعود إلى الخمر..

ورفع سماعة التليفون بسرعة واتصل بزوجته شهيرة.. إنها فى البيت.. ولم ينطق بأى كلمة.. أعاد سماعة التليفون، ثم قام مسرعا مهرولا بعد أن حمل زجاجة الخمر فى يده.. وركب سيارته وانطلق مسرعا إلى بيته.. بيت الزوجية القديم..

ودخل البيت وشد شهيرة من يدها وأجلسها حيث تعودا أن يجلسا أيام زمان لقضاء الأمسيات ووضع بينهما زجاجة الخمر، ثم قام وأتى بكأس لها وكأس له.. وبدءا يشربان..

وقال بعد الكأس الأولى..

- لنعد كما كنا..

وقالت وهى تلقى بنفسها فى أحضانه:

- لقد كنت دائما معى.. لا يشغلنى عنك إلا الكأس.. والآن كلاكما معى.. أنت والكأس.. وشفتاه فى شفتيها.. كأنه يشرب الخمرمن أنفاسها.. وعادا..

ولم يتغير منه شئ الا أنه يغالى فى أداء الصلاة حتى صلاة العشاء، ولا يكف عن أن يردد بينه وبين نفسه.. استغفر الله.. استغفرالله.. استغفر الله..

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٤/٥٧٧٦

I.S.B.N 977-01-4007-4